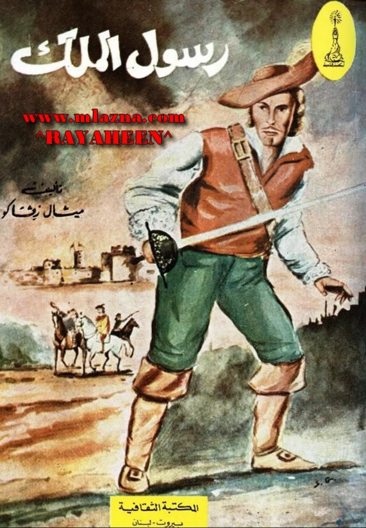


رسول الملك

تأليف
ميشال زيفاكو

المكتبة الثقافية
بيروت - لبنان

الطبعة الثانية
١٩٨٧

- ١ -

رسول الملك

لم يفطن الملك هنري الرابع ، ولا بارداليان حين كانا يتحدثان عن الوثيقة السرية الى ان كلودين دي بوفيليه رئيسة الدير ، الذي كان ينزل فيه الملك ، كانت تسترق السمع من خلال فتحة صغيرة في الغرفة المجاورة.

وكانت رئيسة الدير هذه كثيرة الاهتمام في الحصول على مبلغ من المال لاصلاح الدير ، وتحسين حالة الراهبات ، والرهبان .

وقد طلبت من الملك بعد ذهاب بارداليان ، ان ينفحها بمائة الف ليرة من الذهب لهذا الغرض ، فاستعظم الملك المبلغ ، وكان معروفا بالاقتصاد والبخل .

وقال لها :

— من اين آتيك بهذا المبلغ الكبير يا عزيزتي .. قد استطيع عمل شيء لديوك لو فتح لي الباريسيون ابواب عاصمتهم ، او لو كنت ملكا على فرنسا .

فقالت :

ـ اذا كنت تعدني بالمبلغ ، فقد استطيع الانتظار ، او فانقلني لدير آخر اكثر ثراء وموردا •

ولكن الملك لم يعدها بشيء •

فلما عادت كلودين الى غرفتها ، قررت الاتصال بفوستا ، لان هذه سيدة كريمة ، ولن تبخل عليها بهذا المبلغ •

استدعت احدى الراهبات ، وبعد ان اسرّت اليها بكلمات ، غادرت الراهبة الدير ، ثم عادت ومعها بيسي لكلرك ، حاكم الباستيل السابق ، واحد انصار الدوق دي كيز •

فلما مثل امام رئيسة الدير قال :

ـ يكفي يا سيدتي ان يذكر شخص اسم بارداليان امامي لأتبعه مسرعا الى حيث يشاء •

ولما طلبت منه (كلودين) ان يذهب لانذار (فوستا) بأن بارداليان خلفها ، ليقضي على المشروع الجديد التي هي في سبيل تنفيذه •

عجب (بيسي) وقال :

ـ ألم تمت فوستا ؟•• لقد سمعت انها ماتت •

ـ بل هي على قيد الحياة •

ـ ولكن ما الذي يدعوك لانذار فوستا بالخطر الذي يتهددها ؟

فقالت رئيسة الدير :

ـ ان فوستا كانت ابدا تحسن الي، ونجاح ديرنا وازدهارهمتوقفه على نجاح مشروع الاميرة فوستا لانها لن تنس لنا هذه الخدمة ، وستكافئنا عليه كثيرا •

فقال (بيسي) :

ـ هل استطيع يا سيدتي معرفة سر المشروع الذي تريد فوستا تنفيذه ؟

ــ انها تحمل وثيقة كتبهـا ملك فرنسا هنري الثالث ، يعين فيها اسبانيا خليفة له •• على عرش فرنسا وذلك منذ مدة طويلة •

انتصب (بيسي) مذعورا عند سماعه هذا الخبر ، وسألها :

ــ وانت تريدين مساعدتها في هذا المشروع ؟

فقالت رئيسة الدير ببرود :

ــ نعـم •• لاني علمت ان هنري الرابع ، اذا تمّ له الجلوس على عرش فرنسا ، فان ديرنا سيظل فقيرا ••• ولن ينال منه شيئا •

وفكر (بيسي لكلرك) مليا ، ثم وافق على القيـام بهذه المهمـة ، كرها بباردالبان •• وأملا منه في الانتصار عليه •

ولكنه أدرك في الوقت نفسه ان عليه ان يصحب معه بعض الرفاق في هذه الرحلة •

ودّع رئيسة الدير ، وركب في صباح اليوم التالي جواده ، وسار في طريق اورليان ، وهو يفكر في المصير الذي وصل اليه •

لقد كان من اعظم انصار الدوق دي كيز ، ثم اصبح حاكما للباستيل وجمع ثروة طائلة ، ثم تطورت الحـوادث وفقد مركزه وثروته ، واصبح مطاردا من الملك هنري الرابع بعد موت الدوق دي كيز •

نعم لقد تمكن من انقاذ قسم من ثروته ، ولكن المبلغ كان ضئيلا لا يكفل له السعادة التي يريدها ، والحياة التي يتمناها •

فلما كلفتـه رئيسة الدير بهذه المهمـة الخطيرة ، برق المستقبل في وجهه •

واخذ يفكـر في المركز الذي سوف يحصل عليه فيما لو نجح ملك اسبانيا في الوصول الى عرش فرنسا •• انه سيجعله بالتأكيـد من أقرب معاونيه ، وسوف يقربه منه ، ويكافئه على خدمته هذه خيرا كثيرا •

واهتز حين وصـل في تفكيره الى هذا الحـد ، وفكر في خصمـه

باردالیان : الذي تمكن من التغلب عليه اكثر من مرة ، وما سوف يتولاه من السرور والفرح ، فيما اذا تمكن من افساد مشروعاته والقضاء عليه .

واخيرا فكر في الرفاق الذين يريد الاعتماد عليهم لقضاء هذه المهمة. ولكنه ما لبث ان هز رأسه ، وقال في نفسه :

— سوف اعثر على المساعدين ، دون ما عناء ولا نصب .

★ ★ ★

وفي نزل عمومي يقع على الطريق العام ، اجتمع ثلاثة من الاصدقاء في غرفة واحدة ، لم يكن اكبرهم يتجاوز الخامسة والعشرين من العمر .

وكانت ملابسهم تدل على الفقر ومرارة العيش ، رغم ان ملامحهم كانت تؤكد كونهم من النبلاء ابناء الاشراف .

وقد وقفوا يقدمـون رجلا ويؤخرون اخرى قبل دخولهم الى هذا النزل ، لانه كان منفردا موحشا ، يصلح ان يكون مغارة للصوص وقطاع الطرق .

ولكنهم ما لبثوا ان دخلوه ، فقد كانوا بحاجة الى الراحة ، وبحاجة الى ان يأكلوا شيئا بعد ان عضهم الجوع بنابه .

ولما احتوتهم القـاعة الكبيرة لم يجـدوا فيها احدا ، وشاهدوا في وسطها مائدة متواضعة ، وحولهـا كراس عتيقة ، وموقـدا فيه بقية نار تضطرم ، فصاح احدهم وهو (مونتسيري) .. ينـادي صاحب النزل ليضع بعض الحطب في النار .

وبعد لحظات اقبل صاحب النزل ، وكان رجلا طويل القـامة ضخم الجثة ، فحدجهم بنظراته ، وسألهم عما يريدون ، فقال له احدهم :

— نريد ما نأكله ونشربه وحطبا للموقد .

فمد لهم يده وقال :

ـ هاتوا مقدما ثمن ما تطلبون .

ـ اتجسر على مطالبة مثلنا من كرام القوم ايها اللئيم ؟

وصفعه احدهم ، فهوى الى الارض ، ثم نهض واعتـذر ، واسرع يأتيهم بثلاث زجاجات معتقـة من الخمرة ، وخبزا وبعض البيض ، وهو يقول :

ـ عفوا ايها السادة فهذا كل ما عندي .

تأمل الشباب الثلاثة هذا الطعـام المتواضع ، ثم هتف سانت مالي يقول :

ـ صبرا ايها الرفاق فلا بد ان تتحسن حالتنا في المستقبل .

ولم يكن هؤلاء غير الشباب الثلاثة الذين انقذهم (بارداليان) من الباستيل ، وكانوا من انصار الملك ، فتفرقوا بعد موته ، وساءت حالتهم.

وهربوا من وجه هنري الرابع الذي كان يعتبرهم من اعدائه ، كما اسرعوا بالابتعاد عن الدوق دي مايان ، الذي كان يقـاوم في باريس مع سكانها .. ولا يريد تسليمها لهنري الرابع ملك النافار .

جلسوا يأكلون بعد ان خلعـوا ارديتهم ، فبانت من تحتها سيوفهم ومسدساتهم ، حتى لقد تذكروا وهم يأكلون ، الايـام التي قضوها في سجن الباستيل عند (بيسي لكلرك) ، الذي كان يقدم لهم من الطعام ما يطلبون ، وعدّوها من حالتهم الحاضرة .

وحتى لقد وصل بهم اليأس ان قرروا فيما بينهم اعتراض اي مسافر ليساعدهم طوعـا او كرها ، بعد ان وصلوا الى هذه الحالـة من الفقـر والشقاء .

وأراد القدر مساعدتهم كما يبدو .

وسمعوا صوت حوافر جواد على الطريق العام ، فأسرعوا يعترضون المسافر ، وكان قد ستر وجهه بقناع ، فلم يتبينوا ملامحه .

وتكلم (سانت مالين) باسم الجميع .

فقال للمسافر :

ــ ان الطرق غاصة باللصوص وقطاع الطرق ، وليس من الحكمة أن تسافر وانت في مثل هذه الثياب الفخمة .. ويحسن بك ان تسلمنا كيس نقودك لنحفظه لك ونقيك من غدرات اللصوص .

واخرج (كالابر) في هذه اللحظة حسامه من وسطه ، وابتسم ابتسامة معنوية ، وقال يخاطب المسافر :

ــ ونحن كما ترى بمثل هذا السلاح نستطيع المحافظة على كيس دراهمك . وسوف ندافع عنه حتى النفس الاخير .

وقال ثالث الشباب متهكما :

وسنحتفظ بهذا الكيس الى اجل معين ، ثم نرده لك بعد ذلك .

وضاق صدر الشباب الثلاثة من صمت المسافر وهدوئه ، فأشهر موتسيري سيفه من غمده وزمجر يقول :

ــ ليس من الادب ان تقابل ما عرضناه عليك من خدمة خالصة بمثل هذا السكوت .

وتحرك المسافر فوق جواده . والقى عليهم من كيسه ببعض القطع الذهبية ، فلم يتنازلوا لالتقاطها ، وطالبوه بكل ما معه . فسفر عندئذ عن وجهه وصاح بسانت مالين الذي اخذ يتوعده :

ــ كفاك مزاحا يا سانت مالين .

وذعر الشباب الثلاثة حين عرفوه ، وصاحوا :

ــ بيبي لكلرك .. حاكم الباستيل ؟

وقال (بيبي) باسما :

ـ هل اخترتم هذه الصنعة ، بعد مقتل هنري دي فالوا ملككم ؟
فأجابه احدهم :
ـ لقد أخطأت .. فنحن في زمن الحرب ، وانت من أعدائنـا وقد قبضنا عليك ، وعليك دفع الفدية .
فقال (بيسي) :
ـ تعلمون اني قادر على البطش بكم ، ولو هاجمني ثلاثتكم دفعة واحدة ، ولكني مستعـد لان أساعدكم لكسب مبلغ يفوق الف مرة ما احمله من المال .
ونظر الرفاق الواحد منهم الى الآخر ، واعاد سانت مالين سيفه الى غمده ، وقال :
ـ اذا كان الامر كما تقول فقد تبدل الموقف .
فقال بيسي :
ـ كما اني على استعداد لان اعطيكم ايضا مائة قطعة ذهبية ، اذا تعهدتـم لي بأن تكونوا غدا في اورليان في نزل الديك الشجاع ، وقد ارتديتم احسن ملابسكم كما يليق بالسادة النبلاء ، وعند اجتماعنا سوف اكاشفكم بمشروعي ... ولتعلموا اني قد احتاج اليكم للقتال والمبارزة فهل انتم على استعداد ؟ .
ـ واذا لم تعجبنا الخدمة التي تريدها منا ؟
ـ يكون ما اعطيتكم اياه حلالا لكم .
فوافق الجميع ، ودفع لهم (بيسي) المبلغ الذي وعدهم به ، ثم لكز جواده ، ومضى في سبيله .
وقال سانت مالين ، وهو يلتقط القطـع الذهبيـة التي وقعت على الارض .

ــ يبدو ان (بيسي لكلرك) في طريقه لكسب المال الوفير ، فاذا سرنا معه ، فقد نستعيد ما فقدناه من اموالنا .

وقال موتتسيري :

ــ من كان يظن اننا ستتعاون مع سجاننا .

* * *

وصل الفرسان الثلاثة الى نزل (الديك الشجاع) في اليوم الثاني ، فسار الخدم لاستقبالهم ، وصاح سانت مالين يطلب طعاما وخمرة معتقة .

فحمل اليهم الخدم ما طلبوا ، وجلسوا ياكلون ويشربون ويتندرون ...

واقبل عليهم (بيسي لكلرك) ، بعد ان دارت الخمرة في رؤوسهم ، فحياهم وجلس معهم ، وشاركهم في شرابهم ، وقال له سانت مالين وهو يقدم له قدحا :

ــ هلا حدثتنا يا سيدي عن المهمة التي تريد تكليفنا بها ؟

فقال بيسي :

ــ طبعا ... هل سمعتم قبل الآن بذكر اسم الاميرة فوستا .

فقال سانت مالين :

ــ اتعني فوستا التي كان يخافها ويهابها الدوق دي كيز نفسه ؟

فأجابه (بيسي) بالايجاب وقال :

ــ ففي خدمة هذه المرأة القوية ، التي سيطرت على سياسة فرنسا اريد ادخالكم .. فهل تقبلون ؟

فقالوا :

ـ قبلنا .. وما الدور الذي سوف نقوم به ؟

ـ نفس الدور الذي كنتم تقومون به في خدمة الملك هنري الثالث.

« لقد كنتم تقومون بحراسته ، واليوم ستقومون بحراسة الاميرة فوستا » .

« وكنتم في الماضي تضربون بأمر الملك ، واليوم ستفعلون هذا بأمر الاميرة » .

فقال سانت مالين :

ـ قبلنا يا سيدي .. ولكن هل للاميرة من الاعداء ما يدعو الى تجنيد ثلاثة منا لخدمتها وحراستها ؟

ـ ان لها عدوا واحدا فقط ؟

ـ أمن أجل رجل واحد تريد ان نقوم بحمايتها ؟

فقال ليبيي وقد عض على شفتيه :

ـ الواقع اني لا أؤمن بأننا جميعا ، بما فيكم انا .. نكفي لمقاومة هذا العدو .

ـ فعجب الفرسان الثلاثة من تصريحه هذا ، وقال له احدهم :

ـ اتقول هذا القول وانت الرجل الشجاع ؟

ـ اني لم اقل غير الحقيقة !

فنظر الفرسان الثلاثة الى بعضهم بعضا ، وقد ازدادت دهشتهم ، وسألوه من يكون هذا العدو :

ـ انه الرجل الذي كان سجينا في الباستيل ، فتمكن من مغادرته وسجنني مكانه ...

« وهو الرجل الذي انقذكم من هذا السجن يوم كنتم في ضيافتي كما تعلمون » .

فصاح الثلاثة بصوت واحد :

ـ بارداليان ...

وبدا الذعر على وجوههم .

وقال (بيسي) معلقا :

ـ أرأيتم كيف اننا امام عدو لا يستهان به ؟

وقال احدهم :

ـ كيف نحارب بارداليان ونحن مدينون له بالحياة ؟

فقال بيسي :

ـ هذا هو الموقف بسطته لكم .. وما عليكم الا ان تقبلـوا او ترفضوا .

فقال سانت مالين :

ـ ما دام هذا هو الموقف ، فلا بد لنا من القبول ، او نعود لحياة التشرد والفقر .

« الى اين تريد الذهاب بنا ؟ » .

ـ الى طريق اسبانيا .

★ ★ ★

اجتاز الفرسان الاربعـة .. بيسي لكلرك ، وموتتسيري ، وسانت مالين ، وكالابر ، جبال البرينيه ، دون ان يلاقوا نصبا او حربا في طريقهم، حتى وصلوا الى مدينة (لاريدا) ، فسأل (بيسي) صاحب النـزل الذي توقفوا فيه ليأخذوا بعض الراحـة ، عن الاميرة فوستا ، فعرف منه انها سافرت منذ ساعة الى مدينة (سيراكوز) ، لتتوجه منها الى (مدريد) بعد ذلك .

« وزاد بأنها سافرت في عربة وبامكانكم اللحاق بها ... بعد وقت قصير » .

استراح الاربعة ساعة من الزمن ، تناولوا فيها بعض الطعام ، ثم ركبوا خيولهم ومضوا في سبيلهم .

وكان الطريق وعرا صعب المسالك والاسباب ، وحوله سهول واسعة جرداء ، لا نبات فيها ولا انسان ، وقد توقفت فوستا قليلا في اثناء الطريق لتأخذ الخيل بعض الراحة . فشاهدت فارسا يعدو نحوها ، فدهشت ، وتمعنت فيه ، فعرفت انه (بيسي لكلرك) .

فقالت لنفسها :

ـ عجبا ما الذي دعاه للسفر الى اسبانيا ؟

واشارت الى (مونتالت) الذي كان يسير بجواده على مقربة منها . وسألته ان لا يعترض (بيسي لكلرك) واصحابه اذا ما أرادوا التحدث اليها .

فحنى مونتالت رأسه بالموافقة . واسرع يصدر اوامره بهذا الشأن الى مرافقيه .

وبعد قليل وصل (بيسي) ورفاقه . فرفعوا قبعاتهم .

فسألته فوستا :

ـ هل انت في اثري يا بيسي لكلرك ؟

فحنى (بيسي) رأسه بالايجاب ... حتى كاد يقارب الارض ... فقال :

ـ ما الذي تريده ؟

ـ اني مرسل يا سيدتي من رئيسة دير مونمارتر !

ـ وما الذي تريده مني هذه الرئيسة العزيزة ؟

ـ لقد أرادت ابلاغك ان هنري الرابع ملك النافار قد عرف سر

مهمتك الى اسبانيا ، فأرسل رسله خلفك .. وانت تعلمين يا سيدتي ان هنري الرابع ، يعلل نفسه بالجلوس على عرش فرنسا .

ــ هل عندك ما تقوله غير ذلك ؟

ــ لقد ألحّت علي الاخت كلودين لأدخل بعض الفرسان في خدمتك ... ليدافعوا عنك عند الحاجة ... بعد ان اخبرتك انهم قد يهاجمونك يا سيدتي بين وقت وآخر .

فقالت :

ــ لقد دخلنا ارض اسبانيا .. وما اعتقد ان احدا يجسر على مهاجمتنا ونحن نسافر تحت رعاية ملك اسبانيا ومفتشه الاعظم ، فضلا عن وجود مونتالت ورجاله معي ... وهذا يكفي على ما اعتقد .

وظهر فارس في هذه اللحظة من بعيد .. وكان يعدو وحده في السهل الواسع ... وعرفته كما يبدو.. لانها ما لبثت ان التفتت وقالت لبيسي :

ــ أراك على حق في خوفك وحذرك .. وقد قبلت المساعدة التي جئتني بها ... واوافق على الشروط التي تعهدت لهم بها ...

« فمن هم هؤلاء الفرسان ؟» .

ــ انهم ثلاثة ، وقد اخترتهم من بين الخمسة والاربعين الذين كانوا من اخصاء الملك هنري الثالث .

واخذ يقدمهم اليها واحدا بعد الآخر .

ولم يبدو على وجه فوستا انها عرفتهم، او عرفت الدور الذي مثلوه في مقتل الدوق دي كيز .

ولكنها كانت تعلم على كل حال .. ان الطعنة القاتلة قد صدرت من الرجل الذي كانت تحبه وتكرهه في آن واحد .

سألت بيسي :

ــ هل انت ايضا من الذين قبلوا الدخول في خدمتي ؟

فقال :

ـ اني اريد المحافظة على حريتي يا سيدتي .. ولكني سأتشرف بمرافقتك الى مدريد ، لاني اريد ابلاغ جلالة فيليب الثاني رسالة خاصة ... وسيكون سيفي في هذه الاثناء في خدمتك ايضا .

وظهر الفارس الذي كان يعدو في السهل على جواده ... واخذ يقترب من موكب فوستا .

وقالت فوستا :

ـ ترى هل ارسل هنري الرابع فرقة لمطاردتي .. وهو بحاجة الى كل جندي من جنوده ؟

فقال بيسي :

ـ ان هنري الرابع لم يرسل خلفك يا سيدتي فرقة من جنوده ، بل بعث اليك برجل واحد .. وهذا الرجل اقوى واخطر من فرقة .. انه كالصاعقة التي تنقض على الارض من السماء .

فأشارت فوستا بيدها الى الجهة التي كان يتقدم منها الفارس وقالت بهدوء مرعب :

ـ ها هو قد اقبل .

ـ من ؟ من يا سيدتي ؟

ـ الرجل الذي انذرتني به .

ـ بارداليان ؟

وصاح الفرسان الاربعة وموتنالت معهم والغيظ يكاد يقتلهم :

ـ بارداليان ...

– ٢ –

بارداليان في اسبانيا

كانوا في الواقع خمسة من الفرسان الشجعان ... ومع هذا فقد هزم هذا الاسم واخافهم .

واما بارداليان فتقدم نحو فوستا باسما . وابتسامته الساخرة لا تفارق شفتيه ، فهمّ الفرسان الخمسة بالهجوم عليه ، فمنعتهم فوستا باشارة من يدها .

واما بارداليان فقد تجاهلهم جميعا .. وحنى رأسه محييا فوستا . وهو يقول :

ــ يسرني انك تخلصت من الموت .. ويهمني في هذه المناسبة ان الفت نظرك الى انك استخدمت في سبيل الفتك بي ، جميع الوسائل والاسباب فلم تتوفقي، فهل وقعت اليوم على طريقة جديدة للقضاء علي ؟

« والواقع اني ندمت ندما عظيما بعد ان نجوت من الحريق في القصر ، على هربي من النار ، كان علي ان اسرع لانقاذك ، وان كنت اجهل مكانك .. ولكن النار كانت قد احاطت بالقصر كله ، فلم يبق من سبيل للوصول اليك .

« حتى لقد ظننت انك مت ، وحزنت حزنا شديدا .. ولكني اهنئك الآن على نجاتك ، وكان يجب ان اعلم ان امرأة بشـل دهائك لا بد ان تكون قد اعدت الوسائل اللازمة ، للنجاة بجلدها » .

قال :

ــ هل جئت لتسمعني هذه القصص ؟. وما الذي أتـى بك الى اسبانيـا ؟

ــ جئت ابحث عنك !

قال باضطراب :

ــ ما تريد مني ؟

فقطب بارداليان وقال بجد :

ــ لقد كلفني الملك هنري الرابع ان آتيه بكتاب تحملينه الى ملك اسبانيا ، وقد اتيت ابحث عنـك لأسألك فيما اذا كنت مستعدة لتسليمي هذا الكتاب ؟

وبدت على وجـه فوستا امارات الاهتمـام والتفكير الشديد ، ثم قالت :

ــ لقد عرضت عليك ايها الفارس في الماضي ان أقيم لك مملكة في ايطاليا ، فرفضت اقتراحي ، لانك أبيت مقاومة شيخ هرم عجوز ... فلم اعجب لرفضك ، لعلمي بغرابة طباعـك .. وانا مستعـدة الآن لتبديل خطتي ، معيدة عليك نفس الاقتراح ، ولكن الامر لا يتوقف هذه المرة على مقاومة شيخ فان ، وانما اعرض عليك الاتفاق مع اعظم ملوك اوروبا.

وسكتت تنتظر جوابه .

وقال بارداليان بهدوء :

ــ هل تريدين يا سيدتي تسليمي هذا الكتاب ؟

تجلدت وقالت :

ـ اصغ الي ايها الفارس .. باستطاعتك لقاء حصولك على هذا الكتاب ، ان تصير قائدا عاما للجيش الذي سوف يرسله فيليب الثاني ملك اسبانيا لافتتاح فرنسا ، ومثل هذه الحملة اذا كانت تحت قيادة قائد مثلك ، فانها لا تغلب .. ويصبح فيليب الثاني ملك فرنسا حقا .

« واما انت فسوف تؤسس حكومة خاصة مستقلة ، ويعترف بك كنائب لملك فرنسا ، وتظل تنعم بهذا اللقب حتى تسعدك الايام وتضع التاج على رأسك .

« وهذه هي الخطة التي رستها في رأسي .. فقل كلمة واحدة اسلمك الكتاب الذي تريد ان تأخذه الى هنري الرابع ملك النافار » .

واجابها بارداليان بهدوء :

ـ اتريدين يا سيدتي تسليمي هذا الكتاب لآخذه الى هنري الرابع ملك فرنسا ؟

فقالت فوستا :

ـ لقد رفضت طلباتي .. وسآخذ هذه الوثيقة بنفسي الى ملك اسبانيا .

ـ شأنك وما تريدين ، ولسوف اتبعك الى مدريد . والى الملتقى.

ـ الى الملتقى ايها الفارس .

وسلم بارداليان ، ومضى في الطريق العام ، واقبل عليها عندئذ الفرسان الاربعة يسألونها بحنق عن السبب الذي دعاها الى منعهم من مهاجمة بارداليان ؟

وابتسمت فوستا باحتقار وقالت :

ـ لقد منعتكم .. لانكم كنتم ترتجفون خوفا منه .

فقالوا :

ـ كلمة واحدة منك ، فلا ندعه يصل الى اسفل الهضبة .

— انتم وشأنكم .

وكان الغضب قد اعماهم حين سمعوا (فوستا) تتهمهم بالخوف فأسرعوا خلف بارداليان وهم يسبون ويشتمون .

ووقفت فوستا في مكانها تشاهد هذه الرواية .

وكان الطريق ضيقا .. اشبه بخط مستطيل قد رسمته على ممر الايام حوافر الخيول والبغال، التي كانت تسير عليه، يعرض حينا ويضيق اخرى ، حتى لا يستطيع المرور فيه اكثر من فارس واحد في بعض الحالات .

ولما اسرع الفرسان الثلاثة خلف بارداليان اضطروا الى السير فارسا بعد فارس .

وشاءت الصدف ان يكون (بيسي لكلرك) اول الجميع ، والباقون خلفه .

وكان بارداليان قد وصل الى زاوية واسعة بعض الشيء ، فسمع وقع حوافر الجياد خلفه ، فالتفت فشاهد (بيسي) يسرع نحوه والفرسان الاربعة خلفه .

فأدار وجهه ، وجعل الصخور وراءه حتى لا يستطيع احد مهاجمته من خلفه .

وقال يستقبل (بيسي) :

— لماذا انت مسرع ؟ اتريد ان اعلمك الدرس الذي وعدتك به في الماضي ؟

وصاح (بيسي) غاضبا :

— سوف ترى ايها اللئيم .

وهتف رفاق (بيسي) يشجعونه ، وانقض بارداليان على خصمه ، وهو يقول له :

ــ انك احط من ان ابارزك واقاتلك ، لانك لا تستطيع المحافظة على سيفك .

وبأسرع من لمح البصر ، ضرب سيف خصمه ضربة شديدة اطارته من يده فسقط في الهاوية ، فأخذ (بيسي لكلرك) ينتف شعر رأسه ، وهو يشتم ويلعن ، وخلفه (سانت مالين) يدعوه ليتنحى له عن الطريق .

وترجل (موتتالت) في هذه اللحظة عن جواده ، وقدم سيفه (لبيسي) .. فاخذه هذا وهجم على بارداليان ثانية .

فقال له بارداليان ساخرا :

ــ انت رجل لا تعرف قيمة الدرس الذي تتعلمه ، فاليك الآن درسا جديدا قد يفيدك .

وقبل ان يتم جملته ، طار سيف (بيسي) مرة ثانية وقال بارداليان معلقا :

ــ هل كبهاك ما لقيته مني ؟.. واذا لم اكن مخطئا فهذه هي المرة الخامسة التي انزع بها سلاحك من يدك .

ورفع (بيسي) يده الى السماء مهددا ، ثم سقط على الارض فاقد الوعي ، من شدة حنقه وغضبه .

حاول (سانت مالين) الاقتراب من بارداليان فلم يوفق ، لان (بيسي) كان ممددا على الارض ، والصخور الى يمينه ، والهاوية من شماله ، وعندئذ صاح به (موتتالت) يقول :

ــ بربك قف مكانك ، ودعنا نعود ، فان هذا الرجل شيطان ... ولسوف يقضي علينا جميعا الواحد بعد الآخر .. واني اصدر لكم هذا الامر باسم فوستا فأطيعوني .

وكان بارداليان قد وقف في مكانه ، ينتظر ان يتقدم اليه واحد منهم ، ولكنهم لم يفعلوا وتراجعوا عائدين بعد ان حملوا (بيسي لكلرك)

... وقبل ان يتحركوا من مكانهم هتف (موتتالت) يقول لباردليان :
— اني اكرهك .
سأله باردليان :
— من تكون فاني لا اعرفك ؟
— اني ادعى (موتتالت) .. ولا بد لي من قتلك .
— تراني رهن اشارتك متى أردت .
وصاح باردليان لما شاهد خصومه يتراجعون :
— الى الملتقى ايها السادة .
ومضى باردليان في سبيله ، ولكنه لم يكد يبتعد خمسين خطـوه حتى سمع طلقا ناريـا ، وأحس برصاصة مرت من فوق رأسه ، فالتفت فشاهد (موتتالت) يعدو مسرعا ، بعد ان ادرك انه أخطأ الهدف ، وهو يهدد ويتوعد .

★ ★ ★

هز باردليان رأسه ومضى في الطريق العام .
لقد هاجمه (بيسي) ورفاقه بطريقة نبيلـة ، واما (موتتالت) هذا فقد أراد قتله غدرا وغيلة .
ولما وصل الى مدريد ، توجـه الى القصر الملكـي وسأل عن الملك فيليب ، فقيل له ... انه غادر العاصمة منذ اياء .
سأل :
— اين استطيع مقابلة جلالته ؟
— لقد ذهب الى اشبيلية ليقود حملة ضد الهراطقة .
ومضى باردليان خلف الملك .

وبعد ايام من السفر أبصر طليعة جند الملك فيليب الثاني .. فلوى جواده نحو الاشجار ليرى وجه الملك عن كثب ، فشاهد بضع مئات من الفرسان المرتدين افخر الملابس ، واحسن السلاح، يحيطون بعربة فاخرة، تجرها بغال قوية .

كان الملك فيليب الثاني ممددا فيها ،'وقد ارتدى ثوبا من الحرير والمخمل الاسود .

كان اصلع الناصية عريض الجبين غائر العينين ، قصير شعر الرأس واللحية ، جاحظ البصر .

وابتعد بارداليان عن مكانه وراح يناجي نفسه :

ـــ اهذا الرجل العبوس العجوز يريد ان يحكم فرنسا ؟.

وتوجه على التو نحو اشبيلية ليصلها قبل وصول الملك ، فلما وصلها ، سأل اول فارس التقاه عن فندق محترم ، قريب من القصر .

حدّق الفارس بمخاطبه ، وبدت امارات الاعجاب على وجهه .

ثم قال بعد قليل :

ـــ اني لا ارى انسب من نزل القلعة ، وهو معد لنزول كرام الضيوف ، وصاحبه من اصدقائي ، فاذا سمحت لي ايها السيد الفرنسي.. رافقتك الى النزل وأوصيت صاحبه بك خيرا .

شكره بارداليان وقبل اقتراحه مسرورا .

وكان الفارس في الاربعين من عمره ، نحيف الجسم ، تبدو من عينيه الحادتين ، امارات المكر والدهاء .

وكانت ثيابه نظيفة رغم تقادم عهدها ، ولحظ انه يستعمل ذراعه اليسرى بصعوبة ، ويحمل سيفا عريضا الى جانبه .

ولما وصلا الى قلعة قائمة ضمن القصر الملكي، قال الفارس الغريب :

ـــ لقد دعي نزل القلعة بهذا الاسم لمجاورته لهذه القلعة الذهبية

التي يخفي فيها مليكنا كنوزه .

وقال بارداليان :

ــ أرى من هيئتك يا سيدي انك تحوي في صدرك على كنوز اثمن بكثير من كنوز مليكك .

ــ ما الذي اعجبك مني الى هذه الدرجة ؟

فرفع بارداليان يده على جبهة الغريب وصدره وقال :

ــ كفاك فخرا هذا الرأس وهذا الصدر .

ولما وصلا الى باب النزل قدم الغريب نفسه الى بارداليان ، باسم ميكيل دي سرفانتس دي سافادرا النبيل من كاستيل، وقدّم له بارداليان نفسه ، ودعاه الى تناول الطعام معه ورحّب به صاحب النزل ترحيبا كبيرا عملا بوصية صديقه النبيل الاسباني ، وقامت ابنته الحسناء بخدمته ، وتوثقت الصداقة بين الرجلين ، وعرف سرفانتس من بارداليان ، انه في مهمة ذات علاقة بالملك الاسباني ، وانها قد تؤدي الى الاختلاف بينهما .

وعندئذ حذره سرفانتس من المجاهرة بآرائه امام احد من الناس ، لان السائل الذي يطلب منه حسنة ، قد يكون من الجواسيس وقال له :

ــ واعلم ان مليكنا يقطع رأس اي وزير من وزرائه اذا تجاسر على الكلام امامه قبل ان يدعوه لذلك .. وهو حذر يضع اوراقه على طاولته بطريقة خاصة حتى يتأكد من ان احدا لم يمد يده اليها .. وهو رجل يلاحق المرأة التي نسي حبها ويتركها تموت في السجن ، وهو الرجل الذي جاء الى هذه المدينة ، يقود جيشا لالحاق الاذى والضرر بفئة من العلماء والتجار الآمنين ، الذين لا ذنب لهم الا عدم تدينهم بدينه .

« وهو الرجل الذي غار من ولده وولي عهده الدوق كارلوس فقبض عليه وسجنه وعذبه . »

« فاعلم والحالة هذه اي رجل سوف تقارعه يا بارداليان ، ولو كان

الملك وحده ، لهان الامر ، ولكن ديوان التفتيش يعمل معه ، وهو اشد منه هولا » .

ولما حاول بارداليان ان يضحك ويسخر ، ارتعش سرفانتس وقال له :

ـ انت تجهل ما هو ديوان التفتيش ، ولا ما هو خطره ، ولا احكامه ، ولا السجون المليئة بضحاياه .. فهل تريد المضي في سبيلك رغم كل نصائحي هذه ؟

ـ نعم .. لان بلادي مهددة اليوم بهاتين المصيبتين .. فيليب الثاني وديوان تفتيشه ، ومن المستحيل ان اترك فرنسا تتعرض لهذين الخطرين .

سأله الشاعر سارفنتس :

ـ وكيف يكون ذلك ؟

ـ بانقاذها من هذين الخطرين ..

★ ★ ★

والواقع ان صديق بارداليان لم يكن غير سارفانتس الكاتب الاسباني الشهير ، مؤلف (دون كيشوت) .

وقد عرض الكاتب صداقته على بارداليان ، وتقبلها هذا ، ووعده ان يطلب مساعدته اذا ما دعت الحاجة الى ذلك .

واقبل على النزل في هذه الاثناء جماعات من الناس توزعوا في اركان القاعة الكبرى ، يشربون ويتندرون . وسمع بارداليان احدهم يقول بصوت عال :

ـ اتعلمـون ايها السادة ان اشبيليـة اصبحت منذ مدة ، تشبه المقابر ؟

وقال آخر :

ـ صدقت فلم يعد فيها شيء يلهو المرء به .

وقال ثالث :

ـ لقد اختفى التوريرو دون سيزار ، وذهب الى جهة بعيدة .

وقال رابع :

ـ والأنكى من ذلك اننا لم نعد نشاهد جيرالدا الحسناء ايضا .

ـ من حسن الحظ ان عاد الملك الينا ، وسيتبدل الامر من حال الى حال بوجوده بيننا .

ـ ان الملك يعد لنا حملة جديدة ، وسنطارد اليهود ونقبض عليهم.

سأل بارداليان صديقه :

ـ من يكون التوريرو هذا ؟

ـ انه اكبر مصارع الثيران .. وهو لا ينزل الى الساحـة متدرعا بالحديد ورمحه في يده راكبا لاجـواده ؛ بل ينزل راجلا على قدميـه ، مرتديـا قميصا من الحرير ؛ وعلى يسراه راية حمراء ملفوفـة ، وفي يده اليمنى سيف صقيل .. ينزع برأسه العلامات التي تكون معلقة بين قرني الثور ، ليضعها تحت اقدام اجمل الحسان .. انه شجاع عظيم، وسيسرك التعرف عليه .

وسأل بارداليان رفيقه :

ـ يبدو مما سمعته من حديث .. ان هذه الحملة هي لاجل جمع المال لا لشيء آخر .. فهل الملك بحاجة الى المال ؟

فقال الكاتب سارفنتس :

ـ ان هناك سرا وراء هذه الحملـة ، لا يعرفه غير الملك والمفتش

الاعظم ، ولتعلم ان هذه الحملة التي ستذهب فيها الكثير من النفوس البريئة موجهة ضد شخص واحد .

« انه شاب في الثانية والعشرين من عمره ، ليس له اسم ولا ثروة ، لانه يكسب اكثر من حاجته في الصناعة الخطرة التي اختارها لنفسه ، وما يكسبه ينفقه على التعساء والمعذبين في الارض ، وهو التوريرو الذي كنا تحدث عنه » .

ـ ولكن لماذا يحاول الملك ذلك ؟

وأدار سارفنتس وجهه فيما حوله ليتأكد من احدا لا يراقبه ولا يسمعه ثم مضى يقول :

ـ ان التوريرو هو ابن ولي عهد اسبانيا الدوق كارلوس الذي مات قتيلا منذ عشرين سنة تقريبا .

فقال بارداليان :

ـ اذآ فهو حفيد الملك فيليب الثاني ، وولي عهده على عرش اسبانيا .

ـ نعم ، والملك الآن يجرد حملة ليفتك بهذا الامير بحجة مطاردة الكافرين .. ولكن اذا أراد هذا الامير المقاومة فان اسبانيا كلها تهب لتأييده ومساعدته .. الا انصار الملك طبعا ، وليس بمستبعد عندئذ ان ينقسم الاسبانيون الى فريقين ، فريق الملك وفريق الامير .. والملك مخطىء في عمله هذا ، لان هذا الشاب يجهل سر مولده ، ولو عرفه لما همه ان يكون ملكا .. فهو ميال للفنون الجميلة ، وعاشق مدله بجيرالدا .

ـ ولماذا لا يقترن بها ؟

ـ هذا ما يتمناه من كل قلبه ، ولكنها لا تريد مغادرة اسبانيا .. ولتعلم انها نورية الاصل وديوان التفتيش لا يسمح بزواجها من احد المسيحيين .. ومن الممكن ان يقبضوا عليها في اية لحظة شاؤوا ، واذا لم

يفعلـوا هذا حتى الآن ، فلانها على جانب عظيم من الجمال والملاحـة . والاشبيليون يحبونها حبا يقارب العبادة ، ويخشى من قيام ثورة شعبية ، اذا اقدم الديوان على التعرض لها •

ولو أراد الامير الاقتران بها ، لاعتبره الديـوان كافرا ، ولأجرى عليه عقوبة الاحراق بالنـار ، لان القانـون ينص على ان كل فرد يتصل بالهراطقة ، ويحميهم في منزله ، او يخفيهم في جهة من الجهات ، او يمتنع عن تبليغ الديوان اخبارهم ، يعاقب بالنـار ، سواء اكان نبيلا ام رجلا عاديا حقيرا •

قال بارداليان :

ــ لقد اثرت اهتمامي بقضية هذا الامير وسره، واتمنى لو استطيع مساعدته •• واذا كان عندك المزيد من قصته فاني في شوق عظيم لمعرفة كل اخباره •

فقال سارفنتس بصوت هامس :

ــ عليك ان تعلم ان كل الذين تدخلوا في مسألة هذا الامير ، من قريب او بعيد ، تعرضوا لموت عنيف ، وكل الذين عرفوا سره او تظاهروا بمعرفة هذا السر ، اختفوا بطريقة سرية •

وقطع سارفنتس حديثه ، اقبل على القاعة شخصان ، كان احدهما يرتدي ثوبا كبيرا ، وعلى رأسه قبعة مسدولة اخفت معالم وجهه ، واما المرأة فقد سترت وجهها بقناع لم يعد يبين معه شيء من ملامحها •

كان الواحد منهما ممسكا بيد الآخر ، ولا بد انهما كانا من العشاق ، وقد تواعدا على اللقاء في هذا المكان •• لانهما توجها نحو القناطر وجلسا تحتها ، وكانت الظلمة تخفيهما عن أعين الآخرين •• والناظرين •

ولم يكد العاشقان يجلسان في مكانهما ، حتى اقبل شخص ثالث ،

واختبأ بين شجرتين من البلح على مقربة من العاشقين ، كأنه يريد مراقبتهما .. ولا يدعهما يغيبان عن نظره .

ولكن بارداليان فطن له ، وقال لصاحبه :

— ان هذا الرجل يشبه العنكبوت المخيفة في وكرها ، المستعدة للانقضاض على فريستها ، عند الفرصة المناسبة ، ولا بد انه جاء لمراقبة العاشقين .

« ولكن ما لنا وله .. قص عليّ قصتك ايها الصديق .. فاني مصغ لك » .

- ٣ -

في قصر الملك

قال سرفانتس لباردليان :

ـ لا بد انك تعرف ان الملك فيليب الثاني قد تزوج خطيبة ابنه دون كارلوس ، وهي اليصابات شقيقة هنري الثالث ملك فرنسا التي كانت اصغر من خطيبها بسنة واحدة .

وقد تعشق الامير كارلوس خطيبته وأحبها حبا عظيما وأراد سوء الحظ ان يشاهد الملك خطيبة ابنه قبل زواجها فأحبها حبا عظيما وقرر الزواج بها وانتزعها من ولده .. وقد توسل الابن واستغاث واسترحم من والده ان يترك له خطيبته . ولكن هذا لم يفعل ، فكان ان ظل دون كارلوس على عشقه لزوجة ابيه ، وهذه على عشقها له رغم زواجها بأبيه .

واصبح الوالد والولد يتزاحمان على حب فتاة واحدة .. وكان ان كاشف الابن والده بأن اليصابات او ايزابيل كما اصبحنا ندعوها تبادله حبا بحب ، فهاج الاب وثار واصبح عدوا لابنه ، وأمر بابعاده عن اشغال المملكة ، ثم عرف الناس بعد ذلك ان ولي العهد قد قبض عليه وحوكم

وأعدم .. وتولى محاكمتــه ثلاثة هم اسبينوزا المفتش الاعظم ، وروي غوميز دي سيلفا ، واميرابيولي العضو في المجلس العمومي ، وقد اتهموه بالاشتراك مع اعداء المملكة في ثورة الفلاندر .

« هذه هي الحجة التي تذرعوا بها ، واما السبب فهو ان ولي العهد كان محاطا بجواسيس والده يحصون عليه انفاسه وخطواته ، ومع هذا فقد استطاع الاجتماع الى حبيبته الملكة زوجة ابيه ، وكان ان حملت الملكة ، من الابن العـاشق ، وليس من الزوج .. وعرف الملك بالامر ، فأمرها بالانزواء في احد الاديرة ، فأنذرت عشيقها بأن الملك سوف يخطف طفلها عند ولادتها ، فاتخذ ولي العهد احتياطاته وأخذ الطفل وأخفاه ، في اليوم التالي للولادة ، وعند اختفاء الطفــل .. قبض على ولي العهــد وجرت محاكمته .

« واتصل الملك بابنه في سجنه ، وساله عن الحقيقة ، وعذبه وحماه بالنار ، ومن فرط ما عاناه ولي العهد المسكين عض لسانه بأسنانه ، فقطع جزءا منه وبصقه في وجه والده باحتقار لا يوصف ، فصعقت الملك هذه الاهانة ، وبعد ايام شاع ان الامير المنكود قد مات لافراطه في الطعـام والشراب ، واما الملكة فلم يمسها الملك بأذى ، لان الملكـة في اسبانيا لا تتعرض للعذاب عندنا ، لكنها توفيت ايضا بعد شهرين من وفاة حبيبها »٠

وسمع الصديقان في هذه اللحظة جلبة قريبة ، فقال باردليان :

ــ لا بد انه سوف تجري قريبا حوادث علينا ان نراقبها يا صديقي.

وكان سبب هذه الجلبة ، ان الرجل المختبىء بين شجرتي البلح ، انسل من مكانه الى حيث كان يجلس بعض الفرسان حول مائدة ، وهم يصخبون ويتندرون ويشربون ، وهمس لهم بكلمات ، وأراهم شيئا خفيا في يده ، فحنوا رؤوسهم وابدوا خضوعهم واحترامهم .

ومضى الرجل نحو الخادمة فهمس في اذنها بكلمات ايضا ، فحنت رأسها . وبدت على وجهها امارات الرعب والاحترام .

وخرجت من القاعة ، ثم عادت اليها تحمل رزمة من الشرائط المختلفة الالوان .

وعاد الرجل الى مكانه ، ولم يفطن العاشقان لما يجري حولهما ، واخذا يستعدان لمغادرة المكان .. خلسة كما دخلا اليه .

ولما وصلا الى مكان الرجل السري ، انتصب واقفا وقال :

ــ باسم الديوان المقدس اقبض عليك ايتها الفتاة .

دفع الشاب محبوبته بلطف ، وتقدم من الرجل السري : دون ان يرفع سيفه بعد ان شاهده وحده ، ولكنه شعر في الحال بحركة بين رجليه وأحس بأن ذراعه المرفوعة قد تعلقت بشبكة ، فارتد الى الوراء بشدة ونزع سيفه من جنبه ، وفي أسرع من لمح البصر اصبح مقيدا من رأسه الى قدميه .. وهو يشتم ويلعن من فرط غضبه وحقده .

وكان الفرسان الذين تحدث اليهم الرجل المجهول هم الذين قاموا بهذا العمل ، وقال له احدهم :

ــ لقد فعلنا ما فعلنا مكرهين .. فالامر صادر من الديوان المقدس، فاقتد بنا ايها السيد ولا تحاول شيئا .

وكان الفرسان الاربعة قد جلسوا فوقه وهم يقيدونه حتى لا يأتي بحركة ، حتى اذا نظروا الى وجهه صرخوا بصوت واحد قائلين :

ــ دون سيزار .. التوريرو .

وسمع صوت آخر يقول :

ــ جيرالدا .

ذلك ان الفتاة لما أرادت الانتصار لحبيبها ، سقط قناعها ، وظهرت للحاضرين بجمالها الفتان .

وعندئذ تقدم الرجل المجهول من الفتاة يقول لها :
— لقد قبضت عليك اخيرا .
حاولت الفتاة الافلات من يده فلم توفق .. فقد كان قويا شديد البأس ، وقد راح يقو لها ساخرا :
— هيا اتبعيني ايتها الحسناء ، فلم يبق لك من سبيل للنجاة من يدي .
وتقدم نحو الباب وهو يجرها خلفه .
فلما وصل اليه توقف مكرها .

★ ★ ★

ذلك انه وجد بارداليان واقفا امام الباب مستندا عليه ، وقد كتف ذراعيه على صدره .. دون ان يتحرك من مكانه .
لم يخطر على بال الرجل السري ان هناك من يتعرض لرجال الديوان المقدس .
صاح ببارداليان يقول :
— تحول عن مكانك ايها الرجل .. فاني اريد المرور .
ولما لم يتحرك بارداليان من مكانه ، فقد الرجل صوابه، وصاح به :
— ان من الخطر القاتل ايها الرجل عدم احترام رجال الديوان المقدس فتحول عن مكانك .
ولكن بارداليان لم يفعل وظل ينظر اليه ساخرا باسما .
سأله الرجل بصوت أجش :
— ما الذي تريده مني ايها الرجل ؟
— اطلق سراح هذه الفتاة ، وأعد الحرية الى الشاب الذي قبضت عليه غيلة وغدرا .. حتى اذا فعلت ما امرتك به غادرت هذا المكان سريعا.
فقال الرجل :

ــ انذرك من التعرض لرجال الديوان المقدس •

فلم يكن يتوقع احد ان يقدم شخص على ما اقدم عليه بارداليان•• وان يتعرض لرجال الديوان المقدس •

ولم يعد الرجل المجهول يستطيع صبرا فقال للفرسان الذين أيدوه في اول الامر :

ــ اقبضوا على هذا الرجل الجاحد •

وكانوا ستة من الفرسان ، احاط اربعة منهم بدون سيزار وجلسوا على صدره حتى يمنعوه من الحركة ، فلم يبق الا اثنان تقدما نحو بارداليان ، وقبل ان يشهرا عليه سلاحهما ، سقطت قبضته على وجهيهما فسقطا ارضا •

وعندئذ تقدم نحو الرجل المجهول وقال له :

ــ دع هذه الفتاة وشأنها •

ولما حاول الرجل الاعتراض ، حمله من وسطه كما يحمل طفلا والقاه في الشارع وهو يقول :

ــ اذا كنت تريد المحافظة على أذنيك فحاذر ان تعود ثانية الى هذا المكان •

وعاد الى القاعة فأمر الفرسان الاربعة بحل وثاق الشاب ففعلوا ، ثم أمرهم ان يغادروا المكان حالا ، وان يحملوا رفيقيهم معهم ، او يضطر الى معاملتهم كما يعامل اللصوص •

وبعد ان غادر الجميع القاعة تقدم دون سيزار وجيرالدا يشكران بارداليان ، على انقاذه لهما ، وقال الشاب :

ــ سوف اكون سعيدا اذا مت فداء اشجع فارس رأيته •

واما جيرالدا فقد تقدمت صامتة نحو بارداليان ، فتناولت يده وقبلتها ، فتأثر بارداليان ، ودعاهما لمائدته ، حيث شرب نخبهما •

★ ★ ★

كان فيليب الثاني في احدى غرف قصره الكازار مع المفتش الاعظم ... وشخص آخر كالعمالقة جامد في مكانه لا يتحرك ، قد وقف مكتوف اليدين .

وكان هذا الرجل الجبار ، الضخم الجثة ، صاحب اللحية الشقراء ، لا يفارق الملك في الحفلات العمومية التي كان يقيمها ، سواء اكانت دينية ام مدنية ، ويشهد معه تنفيذ الاحكـام الصارمـة التي يصدرها ، وهو صامت جامد لا يتحرك ولا يتكلـم ، وعيناه لا تفارقان الملك : فكأنـه والحالةهذه اشبه بالكلب الامين، لذلك كان جميع من في البلاط يرهبونه، لقربه من الملك ولقوته الهائلة .

وكان الملك في هذه الاثناء يتحدث الى المفتش الاعظم عن فوستا . التي حاولت احداث انقلاب في رومه ، وكيف انها جميلة قوية يحسن بهما مراعاتها والافادة منها .

ولما سأل الملك المفتش الاعظم عن باردليان اجابه هذا :

ــ لقد سمعت انه ينعم بقوة هائلة ، وعلينا اما ان نقهره او نكتسبه لجهتنا ، ولكن علينا قبلا ان نتأكد من قوته .. وقد تعرض عند وصوله الى اشبيلية لاحد رجالي فألقاه على قارعة الطريق كمن يرمي شيئاً تافهاً ، وهذا يدل على جسارته وجرأته .

فقال الملك :

ــ هل بلغت به الجرأة ان يتحرش بأحد رجـال التفتيش .. اذن يجب معاقبته .

ــ بل يجب يا مولاي معرفة المهمة التي يحملها لجلالتك .. كما اننا لن نعدم وسيلة للانتقام منه ، عندما تدعو الحاجة الى ذلك .

وأمر الملك على الاثر بادخال فوستا اليه ، فاقبلت هادئة قوية ، تشع عيناها حزما وقوة ارادة .

أعجب الملك بجمالها وجرأتهـا ، فنهض من مكانه وتقدم خطوتين

نحوها وامسكها بيدها وقادها الى مقعد قريب منه وقال لها :

ــ تكرمي بالجلوس يا سيدتي •

ولما اخذت فوستا مكانها •• امام دهشة المفتش الاعظم ، الذي لم يكن ينتظر مثل هذا الاكرام من الملك ، قال لها الملك :

ــ تكلمي يا سيدتي فاني صاغ اليك •

اخبرته فوستا انها تحمل اليه المستند الذي كتبه هنري الثالث الذي يجعله خليفة له على عرش فرنسا •

ولما طلب منها الملك ان تريه هذا المستند ، قالت له :

ــ قبل ان اريك هذا المستند أرى من واجبي ان اطلعك على ما لا تزال تجهله ، وأعرفك بنفسي واكاشفك بما عملته وما لهوي عمله •

وجمجم المفتش الاعظم لنفسه :

ــ لقد كنت اتوقع ان تفعل ذلك •

سألها الملك ان تتكلم •• وتبسط له ما تريد قوله •

تحدثت فوستا الى الملك كيف انها لا تزال تسيطر على انصارها الكثيرين في ايطاليا وروما، وان الملك اذا ساعدها لتصل الى زعامة روما، اعطته زعامة العالم المسيحي كله ، وان كل ما تريده منه هو ان يلزم الحياد في الصراع الذي يدور بينها وبين زعيم روما •

وقال الملك :

ــ ان مثل هذا المشروع يحتاج الى الملايين •

واجابته فوستا :

ــ بكلمة واحدة منك، اقدم لخزانتك بعد اسبوع عشرة ملايين•• او اكثر اذا اقتضت الحال •

وقال الملك مترددا :

ــ ليس باستطاعتي الجواب على طلبك الآن •• لأني لا اقدر ان اعطيك ما لست امتلكه •• كما لا يروقني ما تعرضينه عليّ مقابل مطاليبك مني •

قالت :

ــ اني اعطيك عرش فرنسا ، اذا تخليت عن مساعدتك لزعيم رومه .. كما احمل اليك وصية تجعل ثلاثة ارباع سكان فرنسا من حزبك .

فطلب الملك الاطلاع على هذه الوصية ، فأنكرت ان تكون حملتها معها .. وقالت :

ــ ولكني مستعدة لاطلاعك على هذه الوصية متى عرفت رأيك فيما طلبته منك .

ــ لن ابدي رأيي قبل الاطلاع على الوصية التي تحملينها .

وأدركت (فوستا) انها لن تستطيع ان تنال شيئا عاجلا من هذا الملك ، وقد بدا امامها رجلا شهوانيا اكثر منه ملكا ، بعد ان راح يطري جمالها ، ويحدق النظر في وجهها .

ذهب سبينوزا في هذه اللحظة الى الغرفة الثانية ليصدر امرا للحجاب ، ثم عاد فسأله الملك :

ــ هل اعددت ايها المفتش الاعظم احدى المظاهرات الدينية ليوم الاحد القادم .

ــ نعم يا صاحب الجلالة فقد نصبت امام مذبح فرنسيسكو سبع محرقات سيعدم فيها حرقا سبعة من الهراطقة .

فدعى الملك فوستا لحضور هذه الحفلة فوافقت ، وعاد الملك يسأل المفتش الاعظم :

ــ متى تجري حفلة الثيران ؟

ــ بعد غد في ساحة سان فرنسيسكو ، وقد اعددنا لها كل لوازمها .

ــ وهل قابلت التوريرو ؟

ــ نعم وقد وعدني بالاشتراك في هذه الحفلة .

والتفت الملك الى فوستا يقول :

ــ انت لا تعرفين هذا الرجل يا سيدتي.. فهو اعظم مصارع للثيران في اسبانيا ، فتكرمي بحضور هذه الحفلة ايضا ، وسوف احفظ لك مكانا في منظرتي .

وقبلت فوستا دعوة الملك شاكرة حامدة .

★ ★ ★

وتحركت فوستا من مكانها تريد الخروج

واقبل الحاجب في هذه اللحظة . يعلن وصول الفارس بارداليان رسول صاحب الجلالة ملك النافار .

واحست فوستا عند سماعها هذا النبأ بقوة غريبة تقيدها في مكانها ، واقبل بارداليان الى الغرفة هادىء الخطو رافع الرأس شامخ الانف .. حتى وصل الى قدام الملك فحنى رأسه مسلما .

حدّق الملك في وجهه ، كأنما يريد اجباره على خفض بصره ، ولكن بارداليان لم يفعل .

وأرسل بصره في أطراف القاعة فشاهد صاحب اللحية الشقراء ، والمفتش الاعظم قد جمدا في مكانهما ، فقال في نفسه :

ــ هذا هو العدو الحقيقي الذي يجب عليّ ان ارهب جانبه .

وكانت فوستا بعد ان جمدت في مكانها عندما سمعت اسم بارداليان قد تمالكت نفسها واخذت تحاول مغادرة القاعة .

ولكن بارداليان تقدم منها وقال لها بهدوء مرعب :

ــ لقد أراد القدر ان نجتمع نحن الثلاثة ، ومن الحق ان نصفي حساباتنا في هذه المناسبة .

وتوقفت فوستا .. واصفرّ وجه الملك غضبا.. ونظر الى اسبينوزا كأنما يريد ان يسأله عما يجب عليه ان يفعل .

وامسك ذو اللحية الشقراء بقبضة سيفه ينتظر ان يأمره الملك بضرب هذا الرجل الجريء .

وكان جواب اسبينوزا على اشارة الملك ان نصحه بالتجلد والهدوء.

وظل بارداليان على سكينة لا تفارق الابتسامة شفتيه ، وقال معتذرا :

ــ عفوا يا مولاي اذا تجرأت امامكم ، وعذري ان صاحب الجلالة ملك فرنسا لا يفرض علينا التقيد كثيرا بمثل هذه التقاليد .

وقال الملك وقد تمالك جأشه :

ــ افعل كما لو كنت بحضرته .

وحنى بارداليان رأسه وقال :

ــ شكرا يا صاحب الجلالة .. وعذري اني راغب في الاطلاع على وثيقة او مستند تحمله الاميرة فوستا، وقد قمت بهذه الرحلة لهذا السبب واظن ان مولاي الملك راغب في الاطلاع على هذه الوثيقة ايضا .. ولا بد انه طلب ذلك من الاميرة ، فاعتذرت بأنها لا تحملها معها ، والواقع انه موجودة معها هنا .

واشار بيده الى صدر فوستا .

وذعرت فوستا ، وعجب الملك لهذا السفير الغريب الطباع ، ومضى بارداليان يقول :

ــ اخرجي يا سيدتي هذا المستند من مكانه ، ودعينا نتحقق من خطره واهميته .

وأرادت فوستا ان تبادله جرأة بجرأة فمدت يدها الى صدرها ولكن ملك اسبانيا رأى انه لا يجوز بحث هذا الامر امام هذا السفير ، فقال :

ــ لقد سمحت للاميرة بمغادرة هذه القاعة .

واغتنمت فوستا هذه الاشارة وحنت رأسها وتوجهت نحو الباب.. وهي تقول لبارداليان :

ـ سنلتقي في غير هذا المكان ايها الفارس ..

فقال بارداليان :

ـ بالتاكيد يا سيدتي .

وغادرت فوستا قاعة الملك .

وتبعها اسبينوزا يودعها .. حيث ادخلها غرفة اخرى في القصر ، وعاد ليشهد بقية الحديث بين الملك وبارداليان .

وقال الملك بعد عودة المفتش الاعظم :

ـ ما هي رسالتك ايها السفير ؟

فقال الفارس :

ـ ان جلالة ملك فرنسا يطلب منك سحب جنودك الاسبانيين الموجودين في باريس لمساعدة سكانها .. كما يطلب سحب جنودك في المراكز الاخرى .. وهو يعتبر وجود هؤلاء الجنود عمل غير ودي ، وتدخلا في شؤون فرنسا الداخلية .

فبرقت عينا الملك وقال :

ـ هل هذا كل ما يطلبه جلالة ملك النافار ؟

ـ هذا بعض ما يطلبه في الوقت الحاضر .

ـ قد يكون هذا الطلب عادلا لو كان ملك النافار ملك فرنسا .. ولكنه ليس كذلك كما تعلم .

ـ هذه مسألة داخلية بين الفرنسيين انفسهم .. وكل ما يطلبه منك الآن هو سحب جنودك .

فقال الملك :

ـ ما الذي شجع ملك النافار على مثل هذا الطلب وهو لم يوفق حتى الآن الى افتتاح باريس .

فقال بارداليان :

— لو أراد جلالة ملك النافار لاقتحم العاصمة ، ولكنه لا يريد اراقة الدماء ، ويرجو ان يفتح الباريسيون له مدينتهم راضين لا كارهين.

وكظم الملك غيظه ، وقال :

—سندرس طلب ملك النافار .

واصر باردالیان على ان يصل الى غرضه .. وقال للملك :

— ايرفض سيدي هذا الطلب الشرعي .. الذي قدمته له باسم ملك النافار وفرنسا ؟

— واذا رفضت فماذا يكون ؟

فقال باردالیان بهدوء :

— عندئذ تكون انت مسؤولا يا مولاي عما سيقع لجنودك حين يعاملون أسوأ معاملة ويطردون من بلادنا .

ولم يعد ملك اسبانيا يستطيع تمالك عواطفه ، فاصفر وجهه ، وصاح بصوت أجش :

— أراك تريد تهديد ملك اسبانيا ؟

— اني لا أهدده يا سيدي ولكني أنذره فقط .

وازداد غضب الملك بعد هذا الجواب ، والتفت الى صاحب اللحية الشقراء كأنما يريد ان يامره بتأديب هذا السفير الوقح ، ولكن باردالیان أحس شيئا في الجو فأمسك بسيفه ، وتدخل اسبينوزا لانقاذ الموقف فقال لباردالیان :

— ان مولاك الملك سيقدر لك موقفك هذا .

— اني لست مولى لأحد ، ولا عبدا لأحد ، كل ما في الامر اني صديق لملك فرنسا ، وقد قررت قضاء المهمة التي كلفني بها .

ودهش الملك لهذا الجواب .. وعجب من هذا الرسول الغريب الاطوار .

وعاد اسبينوزا يقول :

ـ ان الامر الذي تطلبه خطير جدا .. لدرجة لا يستطيع صاحب الجلالة الجزم فيه قبل ان يدرسه .. خصوصا وهو لم يرفض ما تطلبه رفضا باتا .

وأدرك اسبينوزا انه تمكن من تهدئة الجو بعض الشيء ، وفطن الملك لغرض مفتشه ، فقال بصوت هادىء :

ـ والواقع ان لنا رأينا الخاص بهذه القضية .

ـ هذا ما أريد الوصول اليه .. فأنت طامع بعرش فرنسا لزواجك من اليصابات شقيقة ملك فرنسا ، ولكن هذا الحق ضعيف لان مجلسنا النيابي لم يقر شيئا في هذا الشأن .. رغم ان عمالك وزعوا الذهب في كل مكان ولم يفوزوا حتى الآن .

فقال الملك :

ـ لعل لنا حقوقا غير هذه .

فقال بارداليان :

ـ لعلك تعني الوثيقة التي تحملها فوستا .. جرب ان تذيعها على الناس ، وانا ضمن لك ان باريس وفرنسا سوف تعترفان بهنري الرابع حالا ملكا على فرنسا ، لان عمالـك يا سيدي لا يصدقونك الاخبار ، فقد سئم الشعب الفرنسي حياة السلب والنهب والخلاف على السلطات ، وهم على استعداد للاعتراف بهنري الرابع ولو ظل على جحوده ، فاذا نشرت هذا المستند فان هنري الرابع سيعتنق الكثلكة حالا ، فتفتح له باريس ابوابها .. ويعم السلام فرنسا .. لانها تفضل ملكا فرنسيا على ملك اجنبي .

« ثم ان الفرنسيين ليسوا على استعداد لقبول ديوان تفتيشك ومحرقاته وضحاياه .. وقد عرفت فرنسا ما جلبتـه لبلاد الفلاندر من

الارزاء حين دخلتها .. واذا ما حاولت غزو فرنسا فان حجارتها لا شعبها فقط سوف تهب لمحاربتك » .

فقال الملك وقد اندهل لجرأة هذا السفير :

ــ لقد أفدت من حريتك كسفير كل الافادة .. وما قلته لي يستحق الاهتمام وسأدرسه ، وافكر فيه ، وأريد في الوقت نفسه معاملتك بما تستحقه من الرعاية والاكرام ، فهل تريد ان تحضر غدا المحرقة العظيمة ، التي سوف نقيمها اكراما واجلالا ليوم الاحد ؟

ــ شكرا يا مولاي .. فان هذه المظاهر لا ترضيني .. وتؤثر عليّ كل التأثير فعذرا كريما .

ــ وهل ترفض دعوتنا لحضور حفلة مصارعة الثيران ؟

ــ بل سأحضر هذه الحفلة يا موي .

ــ وسوف اخبرك بجوابي على مطالب اخينا ملك النافار واكرر عليك ان لا تنسى الحفلة .

ووعد بارداليان الملك بالحضور وودعه واتجه نحو الباب ، فأشار عندئذ الملك الى ذي اللحية الشقراء ، فاقترب هذا منه فقال له الملك :

ــ أدبه واجعله سخرية امام الجميع ، ولكن حذار ان تقتله .

★ ★ ★

خرج الرجل يتبع بارداليان .

ولما خرج ذو اللحية من الغرفة ، نهض الملك وتقدم من ستارة كثيفة أزاحها ، ورفع الفتحة التي خلفهـا ، ثم اخذ يراقب ما سوف يجري في الغرفة المجاورة .

— ٤ —

ذو اللحية الشقراء

لم يظهر على وجه بارداليان انه قد فطن او ادرك ان هناك من يتأثره ويتبعه .

وكانت الغرفة التي وصل اليها واسعة الاطراف على جوانبها مقاعد عديدة ، وفيها العدد الكثير من حاشية الملك ورجال بطانته واخصائه وضباط الحرس والخدم جامدين في اماكنهم وهم بين جلوس ووقوف ، وبعضهم يتحدث الى رفاقه او يتندر مع القريب منه .

ولما وصل بارداليان الى هذه القاعة أبصر الفرسان الثلاثة الذين اخرجهم من الباستيل ، ينتظرون خروج سيدتهم فوستا ، ولم يكن بينهم (بيسي لكلرك) ولا (موتتالت) عدوه الجديد .

وكان الحضور الى هذا يتكلمون همسا لا يرفع احدهم صوته مخافة ان يسمعه الملك فيزجره او يطرده .

ولحظ بارداليان عند وصوله الى هذه القاعة ان الجميع جمدوا في اماكنهم وتوقفوا عن الحديث .

وسبب ذلك ان الحاضرين شاهدوا صاحب اللحية الشقراء يتعقب

بارداليان ، فأدركوا ان في الجـو شيئا ، فلزموا الصمت •• ينتظـرون ما سوف يقع •

وتقدم بارداليان نحو الباب وكان يحرسه احد الضباط ، فأشار اليه صاحب اللحيـة اشارة خفيـة ، فمد الضابط سيفه يمنع بارداليـان من الخروج •• وهتف يقول :

ــ عفوا يا سيدي •• فالمرور ممنوع من هذا المكان •

فقال بارداليان :

ــ اذا كان الامر كما تقول •• فارشدني الى الباب الذي استطيع الخروج منه •

فأشار الحارس بيده اشارة مبهمة ولزم الصمت •

تقـدم بارداليان نحو باب ثان ، والابصار مصوبة اليه ، فاعترضه حارسه كما فعل حارس الباب الاول، فقطب حاجبيه، والقى على ما حوله نظرة شديدة لو شاهدها ذو اللحية الشقراء لحسب الف حساب لما سوف يفعله ، ولكنه لم يرها ، لانه كان مشغولا بتدبير وسيلة يجعل بارداليان فيها سخرية امام الحاضرين •

وقال بارداليان في نفسه :

ــ يبـدو انهم يريدون المزاح معـي ، فاضحكـوا الآن وسنرى ما يكون •

وراح يتمشى في القاعة مفكرا •

ووصل الى حيث كان الفرسان الثلاثة موتتسيري وكالابر ، وسانت مالين ، فحيوه بلطف ، ونظروا الى بعضهم ، ثم قال سانت مالين له :

ــ اظن يا سيدي انك تعرف مهمتنا وانه صدرت الينا اوامر بقتلك، وهو امر يؤسفنا جميعاً لاننا نحترمك ونقدرك •• ولكني أرى ان هؤلاء

يريدون اكراهك على تمثيل دور لا يروقك وعفوا على هذه الجرأة ولكنها الحقيقة .

فقال بارداليان :

ــ حدثوني بما تعرفون ..

ــ وقال موتسيري بحماس :

ــ اعلم يا سيدي اننا نرفض ان نرى اجنبيا يسخر من احد مواطنينا .. ولا نطيق السكوت على هذه الاهانة .

« ولهذا قررنا المدافعة عنك عند اللزوم » .

فشكرهم بارداليان على عواطفهم ، وطلب منهم ان يلزموا السكوت، لانهم سيرون العجب العجاب بعد قليل .

وعاد بارداليان يذرع الغرفة .

واذا به يشعر برجل يدوس على قدمه .

وسمع من ورائه ضحكا عاليا .

فالتفت فشاهد صاحب اللحية الشقراء يجيل نظرا تائها فيما حوله ، لانه هو الذي داس على قدمه .

فحدجه بارداليان بنظرة ، وقابله ذو اللحية بمثلها ، وقال :

ــ عفوا يا سيدي فقد دست على قدمك ، وارجو ان لا اكون قد آلمتك .

ومضى يسير في الغرفة ، ولم يتدانى بارداليان للجواب عليه ، فعاد ذو اللحية يدوس ثانية على قدم بارداليان ، فصاح به الفارس :

ــ انك بحاجة ايها الرجل لان تتعلم اصول المشي .

وحاول ان يمضي في سبيله ولكن ذو اللحية وضع يده على كتفه وضغط عليها بشدة .. ثم دفعه ، فتراجع بارداليان خطوات الى الوراء ، وضحك الحضور .

واشار ذو اللحيــة الى احد الحجـاب ، فدنا منه ، فأخذ عصـاه الابنوسية ومدها امام بارداليان وقال له :

ـ لقد راهنت يا سيدي اصدقائي على ان تقفز فوق هذه العصا .

وكانت هيئته تنذر بالوعيد والشر .

واخذ الحضور يتحدثون ويتراهنون من يكون الرابح او الخاسر ! وضاق صدر صاحب اللحنة لما شاهد تردد بارداليان ، ودعاه الى القفز من فوق العصا ثانية .

ـ واذا رفضت ان اقفز ؟

ـ اكرهك على ذلك برأس السيف ..

وشهر سيفه ، وضحك بارداليان ضحكة مرعبة .

وكان هذا الجبار واثقا بقوته العضلية الخارقـة ، وكان يعتبر ايضا اشهر من حمل السيف في اسبانيا ، حتى لقد ظن الكثيرون من الحاضرين ان بارداليان مغلوب على امره بالتأكيد .

وشهر بارداليان سيفه وانقض على خصمه .

وبعد لحظات طار سيف ذي اللحيـة الشقراء في الهـواء فقال له الفارس :

ـ التقط سيفك ولنعاود الكرة .

واسرع الجبار يلتقط سيفه ، وانقض على بارداليان ثانية ، ولكن هذا اطار له سيفه في الهواء ، فجن جنون الجبار عندئذ ، وشهر خنجره ، وهجم على خصمـه ، ولكن بارداليان امسك بيـده باصابع قدّت من الحديد ، واخذ يضغط عليها بشدة .. والابتسامة لا تفارق وجهه .

حاول الجبار (بارباروجا) تحرير يده من خصمه فلم يوفق .

وبعد لحظات اشتد عليه الالم فأخـذ يصرخ والقى خنجره ارضا ،

فلوى عندئذ باردالیان یده ، وجعلها خلف ظهره ، وأعاد سیفه الی غمده، فأمسك بالعصا وقال له :

ــ اقفز علیها .

حاول ان یمانع ، فاشتد الضغط على ساعده ، حتى احس انه یکاد ینکسر .. فقفز فوق العصا مرة وثانية ، وكان العرق قد اخذ يتصبب من جبينه ، وقد اصفر وجهه حتى شابه الاموات .

واما الحضور فقد جمدوا في مكانهم .. وقد ملكهم الذهول والاعجاب .

واخيرا امسك باردالیان بلحية الجبار بيده اليسرى واخذ یجره الى غرفة الملك ، فلما بلغها وجد الملك قد عاد الى كرسيه ، وهو مذهول حائر ، فألقى بالرجل ارضا امامه ، وقال له :

ــ لقد اعدت یا مولاي هذا الاحمق اليك ، فان خطر لك انترسله ثانية في اثري فسوف انتف شعر لحيته شعرة بعد شعرة .. ليزداد قبحا فوق قبحه .

وغادر الغرفة قبل ان يسمع جواب الملك ، فاقترب عندئذ المفتش الاعظم من الملك وقال له :

ــ هل اقتنعت یا مولاي بصحة رأيي ، وانك أخطأت في اختيار الفرصة المناسبة ، وهل تسمح لي الآن بالعمل على طريقتي .

ــ افعل ما تشاء .. لقد كاد يقتل بارباروجا ، يا له من جبار قوي .

★ ★ ★

تركنا فوستا في غرفة من غرف القصر تنتظر الاجتماع الى المفتش الاعظم ، الذي طلب منها انتظاره ريثما ينتهي من باردالیان ، وترك معها (موتتالت) لتسليتها ، ولما اقبل احد الرهبان يدعوها الى غرفة المفتش الاعظم ذهبت خلفه ، ومعها (موتتالت) حتى وصلت الى باب خلفه رواق واسع ، فدخلته ، ولما اراد (موتتالت) ان يتبعها احس بيد توضع على كتفه ، فرفع رأسه فشاهد (هرقل سفوندراتوا) امامه ، فاشار اليه هذا ان يتبعه ، وهدده ان لم يفعل ان يصفعه امام الناس .

واضطر (موتتالت) الى ان يتبع (هرقل) وقد ساورته الظنون بأن هناك خطرا يهدد فوستا .

وكان الراهب قد وصل بفوستا الى غرفة متوسطة ، ليس فيها الا بضعة كراس وطاولة قريبة من النافذة ، وفي الجانب الآخر منها مكتبة كبيرة ، وبقربها باب صغير ، فتحه فاذا وراء شبه دهليز صغير .

وكانت فوستا قد لحظت اختفاء (موتتالت) فسألت عنه ، فقال الراهب :

ــ سأذهب للبحث عنه يا سيدتي .

وعاد الراهب بعد قليل ليقول لها : ان (موتتالت) قد غادر القصر مع الرجل الذي اعترضه ، ثم طلب منها الورقة الموجودة في صدرها ، فرفضت ، وشهرت خنجرها تطلب منه فتح الباب ، وفيما هو يتظاهر بفتحه أحست بيدين قويتين تقبضان عليها فتطلعت خلفها ، فاذا راهبان قد ظهرا من حيث لم تدر.. فادركت ان لهذه الغرفة بابا سريا لم تفطن له.

سألت الراهب عما يريده .. فأعاد ما قاله من انه يريد المستند السري .. وانها اذا لم تعطه له بالرضا فسيضطر لأخذه غصبا .

سألته فيما اذا كانوا سيسمحون لها بالخروج حرة بعد ذلك ..

فاقسم لها بالايجاب ، كما أيد هذا القسم المفتش الاعظم الذي اقبل الى الغرفة .

هددتـه فوستا بسوء المصير لسوء تصرفه معها ، فقال انه يعمـل لصالح المملكة ، ولا يسع الملك ان الموافقة على عمله ، وانه لولا باردليان لما حصلنا على هذا المستند ، وانه سيقدم له شكره عندما يجتمع اليه .

وسمع الجميع في هذه اللحظة صوتا يقول :

ــ تستطيع ان تشكره الآن .

التفت اسبينـوزا وفوستا الى مصدر الصوت فشاهدا باردليان امامهما .. وقد اسند ظهره للباب وعلى وجهه ابتسامته المعتادة .

تبادل الرهبان الثلاثة نظرات سريعة .

ولما لم يصدر لهم المفتش الاعظم امرا فقد لزموا الصمت .

والتفت المفتش الاعظم يسأل باردليان كيف دخـل ، فأجابه : من الباب الذي نسيته مفتوحا ، فوفر علي هذا العمل عناء خلعه .. لقد كنت في طريقي لمغـادرة القصر .. ولكن الابواب متشابهة في هذا المكان .. فسمعت عندما اقتربت من احدها حديثك مع الاميرة فوستا .. فقررت البقاء ومعرفة النتيجة .

والتفت الى فوستا يقول :

ــ لو كنت اعلم انهم سوف يأخذون ذلك المستند بهذه الطريقـة لما نطقت بكلمة .

والتفت الى المفتش الاعظم وطلب منه اعادة المستنـد الى فوستا ، وان يعطيها عهدا بأن لا ينالها أذى منه بعد الآن .

★ ★ ★

أدرك المفتش الاعظم ان بارداليـانْ هذا قوة عظيمـة اذا اكتسبها شخص او حزب ظفر بكل ما يريده .

كما ادرك في الوقت نفسه ان الاحابيل والحيل لا تجوز مع مثله ، وانه يحسن به ان يعامله بشرف فذلك خير وأبقى .

وسلّمه المستند وهو يقول :

ــ يشق عليّ كثيرا ان أراك عرضة لتوبيخ الضمير ، ولهذا اقـدم لك هذا المستنـد ، واعترف لك بأنك أبسل وأشرف فارس عرفته حتى الآن .

وناول بارداليان المستند الى فوستا دون ان يلقي نظرة عليه وقال :

ــ اليك هذا المستند الذي أخذ منك بسبب سقطة من لساني .

وذهلت فوستا وقالت :

ــ كيف تعيده اليّ .. وقد تكبدت المشاق للحصول عليه .. ان هذه الوثيقة قد أعطيت لك يا بارداليان ، فلماذا لا تحتفظ بها ؟

فقـال :

ــ لقد طلبت هذا المستند من المفتش الاعظم لأعيده اليك .. وقد فعلت .

قالت :

ــ ولكن كيف تستطيع تنفيذ الوعد الذي قطعته لهنري دي نافار باعادة هذا المستند اليه ؟

فقال بهدوء :

ــ اني انتظر الساعـة التي تتفضلين بتسليمي فيها هذا الكتـاب برضاك واختيارك .

اخذت فوستا الوصية وقال المفتش :

ــ باستطاعتك يا سيدتي مغادرة القصر بأمان مع حاشيتك .

فقال بارداليان :

ــ اقدم لك يا سيدي شكري وامتناني ، واظنك تعلم اني لا اقول ذلك لمجرد المجاملة •

فقال المفتش :

ــ صدقت •• واريدك بهذه المناسبة ان تعلم اني اعدت المستند احتراما مني لك ، لا خوفا ولا جزعا •• وللبرهان على ذلك •••

وضغط المفتش الاعظم على زر خفي فدارت المكتبة ، وظهرت من خلفها غرفة فسيحة ملأى بالجنود الذين يحملون البنادق •• وقال اسبينوزا :

ــ انهم عشرون رجلا مع قائدهم •

وقال بارداليان لنفسه :

ــ لقد اتخذ هذا الرجل اشد الاحتياطات كما يظهر •

واشار المفتش اشارة ثانية فظهر خلف الجند عدد آخر من الرجال المسلحين ، وخلف الباب الذي كان يستند عليه شبكة من الحديد فأدرك بارداليان انه قد تورط ليخدم فوستا ، وكان الاحرى به ان يتركها وشأنها مع ديوان التفتيش •

وصاح المفتش :

ــ حرس الاميرة فوستا •

وظهر على الاثر الفرسان الثلاثة ، وقال المفتش لفوستا :

ــ لقد جاء رجالك ليسيروا بصحبتك ، وانت حرة تذهبين حيث تريدين •

فتقدمت وهمست في أذنه تقول :

ــ ارجو ان لا يخرج حيا من هذا المكان •

وارتجف المفتش الاعظم رغم شجاعته وقال لها :

ــ ولكنه عرض حياته دفاعا عنك .

قال :

ــ لست ابالي به ولا يهمني امره .

ــ كنت اظنك تحبينه .

ــ صدقت .. ولست اتمنى موته الا لاني احبه .

وغادرت فوستا المكان مع حراسها ، واشار المفتش الاعظم الى رجاله فاختفوا ، والتفت الى بارداليان يقول :

ــ هل تسمح لي بالتحدث اليك .

فأجاب بارداليان بالايجاب فقال المفتش :

ــ لم اقصد من كل هذا ارهابك .. كما اني لست عدوا لك .. ولكني اردت ان ابرهن لك على انه كان باستطاعتي قتلك لو شئت ولعلنا نتوصل الى التفاهم والاتفاق فيما بيننا ، لان النتيجة متوقفة على هذا الحديث .

ــ تفضل .

★ ★ ★

سأله المفتش عن سبب فقره، فأجابه انه كانت له (كونتية مارجنسي) وانه وزعها على الفقراء .

ــ ولماذا انت على هذه الحالة لا تحمل غير اسم فارس مع مهارتك وبراعة سيفك ؟

ــ عرض عليّ الملك هنري الثالث ان يجعلني مشيرا ويوليني قيادة جيشه فاعتذرت .

ــ وكيف رضيت بهذه المهمة المتواضعة ؟

ـ لقد عرض علي" هنري الرابع رئاسة الوزارة فرفضت ورضيت بهذه المهمة .

فدهش المفتش لهذه الاجوبة وقال :

ـ لقد احسنت فان هذه الوظائف والالقاب هي دون ما تستحق .

ـ بل هي اكثر مما استحق .

فقال المفتش :

ـ اني اعرض عليك لقب (دوق) وعشرة الاف دينار من الذهب راتبا سنويا مدى حياتك تأخذها من واردات الهند .. شرط ان تكرس سيفك لخدمة حزب شريف عادل مقدس .

ـ اني على استعداد لتكريس سيفي لحزب شريف دون مقابل .

واخذا بأطراف الحديث طويلا حول الدين والسياسة في اسبانيا ، حتى قال المفتش :

ـ اريد منك خدمة .. هل تسمح يا سيدي بأن ترى رجلا بريئا يقتل امامك ولا تنتصر له .

ـ بالطبع .. كلا .

ـ اذن اريد ان تتدخل بسيفك لمنع هذا الاعتداء .

ـ ومن الذي يريدون قتله ؟

ـ فيليب الثاني ملك اسبانيا .

فقال باردليان :

ـ عجبا ان الملك على ما بدا لي يستطيع الدفاع عن نفسه .

ـ صحيح ولكن يده مغلولة وهو مغلوب على امره ، ويوجد هنا رجل له مطامع ، وقد اقسم على قتل الملك ، ونحن لا نستطيع عمل شيء ضده ، لان اسبانيا كلها تحبه وتعبده ، واذا حاولنا القبض عليه ثارت البلاد ، لذلك طلبت مساعدتك للقضاء عليه .

ــ ومن هو هذا الشخص ؟

ــ التوريرو .. وباستطاعتك طبعا ان تقتله في مبارزة فلا يتهم احد الملك بقتله .

فقال باردااليان بهدوء :

ــ ان قصة المؤامرة على الملك التي تنسبها الى التوريرو هذا لا اساس لها من الصحة ، ولئن تعرض عليّ ارتكاب جريمة وهو ما لا اوافق عليه ، كما اريدك ان تعلم بأن الدون سيزار الملقب بالتوريرو ، هو احد اصدقائي ، وانصحك بعدم التعرض له ، لا انت ولا الملك .

ــ يبدو اننا لا نستطيع التفاهم .

ــ هو ما تقول .

فقال المفتش :

ــ لقد تعهدت لك بمغادرة القصر بحرية ، وسأفي بتعهدي .. ولكني اذا صادفتك في مكان آخر سحقتك من غير شفقة ولا رحمة .. فحذار لنفسك .

فحدجه باردااليان بنظرة شديدة وقال :

ــ وانت حاذر لنفسك ، لاني قررت افساد مشاريعكم هذه كلها.. وانا اذا وعدت وفيت .

وغادر الغرفة .. والمفتش الاعظم يتبعه بانظاره ، وهو يبتسم ابتسامة هائلة جامدة .

— ٥ —

قبو الاموات

ذهب هرقل بخصمه في الحب الى خارج قصر الملك دون ان يقول له كلمة في اثناء الطريق ، حتى وصلا الى ضفاف نهر الوادي الكبير .

وكان احد الرهبان يتأثر خطواتهما ، دون ان يشعرا به او يفطنا له.

ولما وصل الدوق الى المكان الذي يريده ، التفت الى (موتتالت) يسأله :

— اني أسألك الآن ما سألتك اياه في رومية .. هل تريد التنازل عن فوستا ؟

فأجابه (موتتالت) بالرفض البات .

واهتز (هرقل) لهذا الجواب ومد يده الى قبضة سيفه ، وقال له :

— اصغ لما اقوله لك يا موتتالت .. لقد كنا اصدقاء في الماضي ونستطيع العودة الى هذه الصداقة ، ان عمك كبير رومية قد اصيب بمرض عضال لن يشفي منه ابدا ، ومن مصلحتنا ان نكون في رومية ، في الساعة الرهيبة ، لانك وصيه الشرعي ، وستكون خلفا له ، كما اني ارجو ان اصبح خلفا لعمي كريمونا .

وارتجف (موتتالت) حين سمع بمرض عمه ، والمركز الخطير المرتقب .. ولكنه ما لبث ان تمالك نفسه ، وتغلب حبه على عقله وقال :

— لقد كذبت يا هرقل فأنت مثلي لا تبالي بموت عمي ، ولا بتعيين خلف له ، ولا يهمك غير ابعادي عنها .

قال هرقل :

— هب ان ما تقوله صحيحا ، فلنتركهـا معا ولنسافر .. لانني لا استطيع الصبر على قربك منها وابتعادي عنها .

فقال موتتالت :

— ان وجودها على مقربة مني الزم لي من الهواء الذي اتنشقـه وافضل الموت على الابتعاد عنها .

فقال هرقل بحقد شديد :

— اذا كان الامر كذلك فمت ..

وبأسرع من البرق امتشق حسامه .

وفعل موتتالت مثله ، واشتبك العـدوان في معركة رهبـة ، وكل واحد منهما يتمنى موت عدوه ، ولم يلبث هرقـل ان صرخ فرحا ، لان حسامه أصاب كتف خصمه ودخل فيه .

ولكنه قبل ان يتمتع بفوزه ، استجمع (موتتالت) قواه الاخيرة ، وانقض على خصمه ، فأصاب سيفه جانبه واخترقه من مكان الى آخر ، فسقط الرجلان ارضا لا حراك بهما .

وعندئذ اقتـرب الراهب منهما وفحصهما ، ثم ارتد نحـو (البرج الذهبي) وهو حصن قريب فدخله من باب سري فتح له حالا ، بعد ان قرعه بطريقة خاصة .

وبعد دقائق خرج ثانية مع اثنين من الرهبان نقـلا الجريحين الى البرج .

وكان جرح موتتالات اخف من جرح خصمه فعاد الى وعيه قبله ، فوجد نفسه في داخل غرفة لم يشاهدها في حياته ، نائما على سرير وثير ، وبالقرب منه مائدة صغيرة عليها زجاجة من الادوية والمراهم .

وفي الجهة الثانية سرير ثان ، ولكنه مغطى بالستائر لا يرى ما بداخله احد .

وكان الراهب الذي شاهدناه يتبعهما يعمل على تجهيز بعض المراهم. فلما شاهد (موتتالات) يعود الى وعيه ، اخبره انه سيعود الى صحته بعد اسبوع ، شرط ان لا يأتي هفوة تضر بصحته .

وبعد لحظات سمع (موتتالات) تنهدا من السرير الآخر ، فادرك ان خصمه لم يمت ، وانه جريح مثله ، فلعن نفسه ان لم يتمكن من قتله .

واقترب الراهب من الجريح ، ووضع على جرحه بعض المراهم ، وسقاه بعض نقاط من شراب صنعه بيده ، ثم نصحه بعدم الحركة .

ولما أخذت صحة الجريحين بالتحسن ، أخذ احدهما ينظر الى الآخر نظرة العداء العظيم .

فقال الراهب في نفسه :

ـ اذا تركتهما وحدهما ، افسدا عليّ عملي العظيم .. الذي سهرت عليه الليالي الطوال .

وتوجه مسرعا نحو غرفة مجاورة ، فتحدث الى راهب فيها بكلمات، ثم عاد الى غرفة الجريحين .

وبعد وقت قصير اقبل على الغرفة رجل سأل الراهب عن صحة الجريحين .

فأجابه :

ـ لقد زال الخطر عنهما يا سيدي ، ولكنني اخشى ان يتغلب الحقد عليهما فيفتكان ببعضهما .

وعرف الرجلان في القادم المفتش الاعظم فوجما .

اشار المفتش الاعظم اشارة بيده الى الراهب فغادر الغرفة ، فالتفت اليهما يقول :

ــ ارجلان انتما ام ولدان ؟. وعاقلان ام مجنونان ؟. كيف يحارب احدكما الآخر ويحاول قتله ؟.

« ان الفائز بعد موتكما سيكون بارداليان بالتأكيد ، وباشارة منه تأتي اليه فوستا طائعة صاغرة » .

صاحا معا :

ــ كفى .. كفى يا سيدي .

ومضى المفتش الاعظم يقول :

ــ بدلا من ان تقتتلا وحّدا قوتيكما ضد العدو المشترك ، حتى تقضيا عليه .

ونظر الرجلان الواحد الى الآخر .

وقال (موتنات) بصوت ضعيف :

ــ صدقت يا سيدي .

وكان ان وافق المفتش الاعظم اخيرا الى مصالحة العدوين ، واتفاقهما على قتل بارداليان .

وكذلك غادر المفتش الاعظم الغرفة بعد ان نجح في جمع العدوين ضد العدو الاكبر المشترك .

★ ★ ★

توجهت فوستا بعد مغادرتها القصر الملكي ، الى المنزل الفخم الذي استأجرته في اشبيلية ، وزينته بأجمل الرياش والتحف ، بحراسة الفرسان الثلاثة .

وبعد ان خلت في غرفتهـا ، رفعت المستند من صدرها ووضعته في علبة صغيرة اخفتها ضمن درج سري في صندوق متعـدد الاقفال وناجت نفسها تقول :

ــ اذا لم يتحطمهذا الصندوق تحطيما ، فلن يستطيع احد الوصول الى هذا المستند •

وجلست على كرسي واخذت تناجي نفسها :

ــ لقد كاد المفتش الاعظم ينتزع مني هذه الوثيقـة لولا تدخـل بارداليان •

ولكن لماذا فعل بارداليان هذا ، ولماذا اقدم على مساعدتهـا ، وهي التي كانت ابدا تدبر له المكايد ، وتنصب الاحابيل لقتله •

ان هذا الفارس يدهشها بأعماله •• ولو انضم اليها لقلبت الدنيـا رأساً على عقب ، ولحطمت الكثير من العروش •• فوق رؤوس اصحابها•

وما دام يرفض التعاون معها •• فيجب ان يموت •

وفكرت في الملـك فيليب الثـاني ، وانها قد تستطيع التأثير عليه بجمالها •

ثم راحت تفكر بخادمتها ميرتيس وابنها من بارداليان •

ترى اين هي الآن ؟

وظلت برهة من الزمن تفكر وتعيد جميع الحـوادث الماضية ، التي وقعت لها في الساعات الاخيرة •

ثم غادرت غرفتها الى البهـو الانيـق ، وسألت عـن (موتنالت) فأجابتها الخادمة انه لم يصل حتى الآن •

فعجبت لغيابه ، وقد عوّدها ان لا يفارقها •

وسألت عن الفرسان الاربعة ، فقيـل لها انهم جميعـا في المنزل ، فدعتهم اليها •

فلما مثلوا امامها سألتهم عما كان يدفعه لهم ، الملك هنري الثالث.

فقال احدهم :

ــ كنا نحصل على الفي قطعة من الذهب كل سنة .

وقال آخر :

ــ عدا الاكل والاقامة والملابس والهدايا والاكراميات .

فقالت فوستا :

ــ هذا مبلغ زهيد ، وسوف اخصص لكم اضعاف اضعاف هذا المبلغ .

وقرعت جرسا مذهبا ، فدخل امين المنزل يحمل ثلاثة اكياس من الذهب في كل منها ثلاثة آلاف قطعة ، وقالت :

ــ هذا هو القسط الاول من الراتب، عدا الاكل والسكن والملابس والهدايا .

ودهش الفرسان لهذا الكرم العظيم ، ولاذوا بالصمت لا يقولون شيئا .

وقالت فوستا :

ــ واريد بهذه المناسبة ان اكلفكم بمهمة ، اذا نجحتم فيها اعطيتكم مثل هذا المبلغ على سبيل المكافأة ...

فهب الثلاثة فرحين ، ولكن فوستا ما لبثت ان قالت لهم بسكينة :

ــ مهلا ايها الاصدقاء فالامر يتعلق بارداليان .

وعندئذ سكن حماس الفرسان وبدت على وجوههم امارات الذعر والخوف .

سألتهم فوستا :

ــ الا تزالون تعتقدون اني اعطيتكم اكثر مما تستحقون ؟

فقال احدهم :

ـ ولكن بارداليان يساوي اضعاف اضعاف هذا المبلغ .. كما انه من الممكن طبعا ان لا تتمكن معه من انفاق الذهب الذي جادت علينا به الاميرة .

ـ كفاكم نقاشا وقرروا موقفكم .. يجب قتل بارداليان .

لاذ الثلاثة بالصمت قليلا ، ثم قال سانت مالين :

ـ اننا جميعا معرضون للموت .. فهيا بنا نقاتل بارداليان .

وسألت فوستا بيسي لكلرك عن موقفه ، فقال :

« انه مستعد لسفك دمه ليتمكن من بارداليان ... وسألها ان تتركه حرا بأعماله ، وان لا تبحث معه مسألة المال الا بعد نجاحه » .

وقالت فوستا :

ـ اني اترك لكم ايها السادة حرية العمل في قتل هذا الرجل ، وانذركم بأنكم اذا لم تنجحوا بالفتك به حتى يوم الاثنين القادم ، فعليكم ان تكونوا معي في الدعوة التي وجهها الي ملك اسبانيا ، لحضور مصارعة الثيران ، فأعطيكم تعليمات جديدة بهذا الشأن .. وانا واثقة ان بارداليان لن ينجو من أيدينا هذه المرة .

وقال الفرسان الثلاثة بعد ان غادروا فوستا :

ـ يسوئنا قتل هذا الرجل الباسل ، الذي أدّب صاحب اللحية الشقراء ، ولم يبالي ببلاط اسبانيا ، ولكن ما العمل ما دامت سعادتنا معلقة بموته .

وقال آخر :

ـ ليمت وليتقبل الله روحه .

★ ★ ★

وصل بارداليان الى رواق طويل ، بعد ان غادر المفتش الاعظم ، وهو يسأل نفسه فيما اذا كان حقا قد نجا من مكايد خصومه ام لا ؟

وحار في أمره كيف يسير في هذا الرواق ..

هل يذهب يمينا ام شمالا ؟.

وكان هذا الرواق كثير العرض ، تتخلله عدة طرق ضيقة من اليمين واليسار .

وهناك بضع نوافذ تمد الرواق بالنور الباهت من زجاجها الملون.. فتزيده ظلاما .

وتقدم خمسين خطوة .. فسمع وقع خطوات دورية من الجنود .. تقترب منه ، ثم شاهدها تستقر في مكانها وتضع اسلحتها على ارض الرواق كأنما قررت البقاء فيه .

فكر فيما اذا كان عليه ان يمضي قدما ، ام يرتد الى الوراء ..

ثم عاودته ابتسامته الهائلة ، فعاود التقدم ، فأبصر جماعة من الجنود يدخلون في الرواق ايضا . وقد تظاهروا بعدم رؤيته حتى وصلوا الى النافذة ، وجلسوا تحتها يلعبون الزهر .

وقرر المضي في سبيله .. واجتاز الجنود فلم يعترضوه ، حتى وصل الى آخرهم ، فأبصر جنديا منفردا يصلح حذاءه فلما وصل اليه سمعه يقول :

ــ حذار على نفسك يا سيدي .. وتجنب دوريات الجنود ، فان القصر محاط بقوات عسكرية تريد القبض عليك ، واحذر ايضا ان تعود على اعقابك لان الطريق قد قطعت .

واختفى الجندي ، وتقدم بارداليان في الرواق ، وكان المكان الذي وصل اليه مظلما ، فأخذ يتقدم حذرا ، خفيف الخطى حتى لا يسمع وقع خطواته احد .

وسمع صوت دورية تتقدم منه ، فاستند الى باب كان هناك ، وكان المكان مظلما . وقد خيّل له ان الدورية سوف تمر به دون ان تراه .

وفيما هو يتحسس الباب بيده ، انفتح فدفعه قليلا ، والقى على الغرفة نظرا سريعا ، فاذا هي خالية فأقفل الباب خلفه ، ووقف ينتظر .

فلما ابتعدت الدورية وحاول فتح الباب وجده مغلقا ، فأخذ يفحص الغرفة فوجد فيها سلما ضيقا فارتقاه ، فاذا هو في شبه رواق ، فيه ثلاثة ابواب ، فتقدم نحو احدها ، فسمع صوتا .. فأصغى ، فاذا بالمفتش الاعظم يقول :

ــ ما الذي يفعله الآن ؟

فأجابه صوت يقول :

ــ انه تائه في الاروقة ، يسير فيها على غير هدى .

وعاد المفتش الاعظم يقول :

ــ لقد اقمنا خمسمائة جندي بالسلاح الكامل في هذه الجهة من القصر ، وأرسلنا الدوريات تتجول في الاروقة ، وتفتش كل الغرف ، فاذا صادف هذا الرجل احدى الدوريات قتلوه حالا ، ولا أمل له بالنجاة .

واهتز بارداليان حقدا وقال في نفسه :

ــ سنرى ايها الوقح اذا كان بامكانك تنفيذ وعيدك .

وسمع المفتش الاعظم يقول ثانية :

ــ ويجب ان يساق الى غرفة التعذيب حالا .

فاجابه شخص آخر :

ــ هذا سهل يا مولاي ، فهو مضطر للمرور في الاماكن التي تركها خالية امامه ، فلا يشعر الا وهو سائر اليها من تلقاء نفسه .

ودفع الباب لعله يستطيع القبض على المفتش الاعظم ، فوجد الغرفة خالية ، ونظر حوله فلم يجد بابا غير الباب الذي دخل منه فيها ، فعاد

الغرفة مسرعا الى الرواق مخافة ان يؤخذ على حين غرة ، وفكر في الذهاب الى غرفة التعذيب ليرى ما فيها اذا كان يريدون الذهاب به اليها .

وبعد قليل عاد يحاول العودة الى الغرفة التي أتى منها ، فاذا بالسلم قد اختفى ، فدهش وذعر ، وأدرك انه محاط بالاسرار والسحر ، ودفع بابا أمامه في الرواق الاعلى فانفتح ، فدخله وهو يظن ان الجنود الذين سمع اصواتهم ، سوف يمرون به ولا يرونه .

ولكنه ما لبث ان سمع احدهم يقول :

ـ لقد قبضنا عليه وهو الآن في هذه الغرفة .

واخذت الضربات تتوالى على الباب ، وأدرك بارداليان عجزه عن مقاومة ستين جنديا ، فأدار عينيه في الغرفة فشاهد سلما صغيرا في أرضها فأخذ ينزل فيه .

وجد نفسه بعد ان هبط درجات السلم في أرض واطئة موحلة اضطر معها الى احناء رأسه ، كما أحس بفساد هوائها ، فازداد ضيقا على ضيق وغضبا على غضب .

وبعد قليل عثر على سلم جديد ، فارتقاه لعله يجد بعده خيرا من مكانه ، ولكنه وصل اخيرا الى غرفة التعذيب ، حيث وجد آلات التعذيب مرصوصة هنا وهناك ، على الجدران والطاولات والموائد .

كما شاهد امامه بابا من الحديد ، لم يمد يده له ، لاعتقاده انه مقفل .

مضت عليه مدة طويلة وهو في هذه الغرفة يفكر في حاله ، ويقول في نفسه :

ـ لا بد ان المفتش الاعظم يريد قتلي جوعا .. فأرسلني الى هذا المكان .

ونظر الى الباب الحديدي الاخير ، وقرر التأكد من مناعته ، وبعد

ان فحصه تاكد له انه باستطاعته فتحه اذا نزع بعض البراغي منه ، ففعل •
وخرج من غرفة التعذيب حيا الى أرض صلبة قوية •
اقفل الباب خلفه وتطلع حوله •
رأى نفسه في شبه رواق صغير ، له باب دفعه ودخل في ممر ضيق تنيره نافذة كبيرة في السقف ، شاهد من خلالها السماء الصافية ، فسر بنجاته ، وحمد الله على نعمته •

★ ★ ★

لكنه ما لبث ان تراجع مذعورا حين أدرك انه في قبو الاموات ، وشاهد التوابيت الى يمينه وهي خالية من الموتى ، فقرر ان يصعد فوق احد التوابيت ليصل الى النافذة ويزيل عوارضها ويخرج من هذا المكان المرعب •
وقد صعد الى النافذة فعلا ، فوجد ان عوارضها من الخشب ، ومن السهل كسرها ، وعندئذ يقفز فوق السور ، ويصل الى الطريق العام •
ولما حاول رفع الحواجز ، أحس بأن شيئا يلتف حوله ، وأن التابوت يتحرك تحته ، ثم ساد الظلام ، فلما أراد الحركة ، وجد الحواجز قد التفت حوله ، وأدرك انه قد اصبح في التابوت ، ولما سمع صوت الصلاة عرف انهم يقيمون الصلاة عن روحه •
وسمع شخصا يقول :
— العله الرجل الذي مر في غرفة التعذيب ؟
فقال له الآخر :
— انت تعلم يا اخي ان غرفة التعذيب ليست الا احبولة يسير فيها الى قبو الاموات الاحياء •

وسمع قرع الاجراس .
وبدأ الرهبان يصلون عن روحه .
وكاد بارداليان يجن من خوفه ، وهو في هذا التابوت المرعب .
واخيرا انتهت الصلاة ، وسمع شخصا يقول :
ــ هل أعددت حفرة لهذا المسكين ؟
ــ نعم .. ومنذ ساعة من الزمن .
وأحس بارداليان انهم يحملونه .
فاستجمع قواه وأخذ يصرخ ، فلم يأبه احد لصراخه ..
ومضوا يحملون التابوت الى مقره الاخير .
لقد كان التابوت ضيقا لدرجة انه لم يكن يستطيع ان يتحرك فيه.
ولما أحس بعد قليل بنفحة من الهواء البارد أدرك انه اصبح في الخلاء، وانه ينقل بسرعة الى المدفن .

وأحس اخيرا ان حامليه قد توقفوا عن السير ، وانهم وضعوا التابوت على الارض .

ثم انهم انزلوه في الحفرة المعدة له ، وان التراب قد اخذ ينهال عليه.
وتمتم يقول :
ــ سوف اموت هذه المرة بالتأكيد .
ــ أخذ يصرخ ويضرب خشب التابوت .
ومضى وقت لم يقدر زمنه وهو يفعل ذلك .
واخيرا ارتفع غطاء التابوت ، بعد ان اخذت عزائمه تخور وتضعف.
وكان وجهه مصفرا يشبه الاموات .
وتنهد تنهدا قويا ، كأنما يريد استعادة قواه .. ووضع يده على جبهته فاذا العرق البارد يملاه .
ولم يلاحظ انه في بستان لا في مقبرة كما توهم اولا .

وان الحفرة التي كان فيها لم تكن عميقة ، وان التراب الذي هيل عليه كان موزعا مبعثرا عن يمينه وشماله .

لم يخطر على باله في هذه اللحظة الا ان يتخلص من الموت ، وينجو من القبر .

وعاد اليه هدوءه لما أحس بالهواء المنعش.. فقام من الحفرة وأسرع نحو باب رآه امامه ، فلما وصل اليه شهر سيفـه ، ودفع البـاب بعنف وتقدم الى الامام فسألـه الضابط الذي كان يقود فرقة الحرس ولهجة العجب بادية في صوته :

ــ من اين انت آت يا سيدي بارداليان ؟

وأجابه بارداليان بصوت قاس ، ومضى في سبيله لا يدري الى اين هو سائر ، فناداه الضابط ليدله على الطريق المستقيم .

فقال بارداليان باسما :

ــ اذاً فأنت لا تريد القبض عليّ .

ــ وهل يقبض احد على سفير ملك النافار ؟

وسمع بارداليان صوتا يقول من خلفه :

ــ لقد وعدتك ان تخرج حيا من القصر وقد انجزت وعدي .

والتفت الفارس ليشاهد المفتش الاعظم خلفه : ولم يعرف من اين أتى فتقدم منه يقول :

ــ ان لي حسابا معك . فقال له المفتش :

ــ لو انك وثقت بكلامي وسرت في سبيلك دون ان تلقي بالا الى الجنود في الرواق لخرجت من القصر منذ ساعات ، ولكنك شككت في وعدي فكانت هذه التجربة التي مررت بها .

« انت شجاع يا بارداليان ، والافضل ان تعـود الى فرنسا ، لأنك اذا بقيت هنا ، فستكون أبدا تحت مراقبتي وسلطاني .. فاختر لنفسك ما يحلو .. واترك مشاكل اسبانيا لأهلها » .

- ٦ -

معركة في الليل

لقد زار بارداليان قصر الملك الاسباني في الساعة التاسعة صباحا . ولم يخرج منه الا عند اقبال الليل ، ومعنى هذا انه صرف الساعات من النهار في هذه الغرف اللعينة المليئة بالاسرار والخفاء .

ولما غادر القصر وجد نفسه تعبا منهوكا ، جائعا ، فلم يفطن والحالة هذه الى اربعة اشخاص كانوا يتأثرون خطواته .

ولم يكن هؤلاء غير (بيسي لكلرك) ورفاقه الذين قرروا قتل بارداليان كما قدمنا نزولا على رغبة فوستا ، وكان (بيسي) الذي يعتبر من اشهر حملة السيف في فرنسا قد ضاق صدره بعد انتصار باردالبان عليه اكثر من مرة فقرر قتله ولو اضطر الامر الى غيلة وغدرا ليثار لشرفه، ويستعيد كرامته .

وفيما كان بارداليان يسير في سبيله دون ان يفطن للخطر الذي يتعرض له ، عرض له متسول طلب منه حسنة ،فأعطاه قطعة من النقود الذهبية بعد ان حدّق في وجهه ، فبدا له تحت اطماره البالية رجلا شديد البأس ، قد اخفت القبعة اكثر وجهه واللحية الكثيفة ما تبقى منه .

ولم يكد بارداليان يبتعد عن السائل ، ويعطيه ظهره ، حتى انتصب هذا واقفا في مكانه ، كأنما تبدل شخصا آخر ، ورفع يده مهددا الشخص الذي أحسن اليه ، وهو يحمل في يده خنجرا صغيرا ، لمع نصله في ظلام الليل .

وقد شاهد الاربعة حركة المتسول هذا فسرهم أمره ، وقال (بيسي تكلرك) هامسا :

ــ اذا أنقذنا هذا الرجل من بارداليان ضمنت له حياته .

وكان بارداليان في هذه اللحظة يفكر في عيني المتسول ، ويناجي نفسه :

ــ لقد رأيت هذين العينين قبلا .. فأين ومتى ؟

والتفت الى ورائه ليتأكد مما يجول في خاطره ، فحنى المتسول رأسه احتراما ، بعد ان اخفى خنجره في يده .

وزمجر (بيسي) قائلا :

ــ الويل له .. لماذا تركه يمر في سبيله ؟

وتقدم الاربعة خلف بارداليان ، ولما بحثوا عن المتسول لم يجدوا له أثرا .. فقد اختفى كأنما الارض قد ابتلعته .

وكان بارداليان قد دخل في طريق ضيق مظلم .

فصاح (بيسي) في رفاقه :

ــ يجب التخلص منه حالا .

وكان (بيسي) قد امسك خنجره بيده ، واخذ يتقدم خلف بارداليان حتى لا يسمع هذا صوت خطواته ، فلما قاربه رفع خنجره من خلفه وصاح :

ــ لقد قبضت عليك اخيرا .

وسمع في هذه اللحظة .. وفي ظلام الليل ، صوت يقول :

ـ احذر لنفسك يا سيدي بارداليان •

وفي اللحظة نفسها أصيب (بيسي لكلرك) بضربة شديدة على كتفه، حالت دون وصوله الى عدوه ، وحاد بارداليان بسرعة البرق الى الجهة الثانية من الطريق ، فلم يصبه الخنجر الذي قذفه به (بيسي) •

وتقدم على الاثر شاب في مقتبل العمر ، وقف امام بارداليان يحميه بسيفه ، فعرفه بارداليان وشهر سيفه بدوره وهو يقول :

ـ دون سيزار •

وسأله (التوريرو) الذي ارسلته العناية لانقاذ بارداليان قائلا :

ـ هل جرحت يا سيدي ؟

ـ لا •• أبدا •

وفي هذه الاثناء اقبل الفرسان الثلاثة الذين كانوا يجرون خلف (بيسي) فعرفهم بارداليان ، وقال للتوريرو :

ـ استند الى هذا الجدار يا صديقي ، حتى لا يأتينا اعداؤنا من خلفنا واتركني لهؤلاء الاصدقاء •

وكذلك فشلت محاولة (بيسي) في قتل بارداليان غيلة ، واضطر اخيرا الى الوقوف امامه وجها لوجه •

ولكن بارداليان لم يكن هذه المرة وحده ، بل كان معه صديقه الجديد •• التوريرو •

★ ★ ★

أدرك الفرسان الاربعة ، وكان (بيسي) في هذه الاثناء قد عاد لنفسه ، وانضم لرفاقه ، ان بارداليان يكفي للوقوف امامهم وحده ، ولكنهم كانوا شجعانا ، فلم يكن بوسعهم والحالة هذه ان يتراجعوا •• بعد ان وعدوا فوستا بقتل الخصم العنيد •

وبدأ القتال وبارداليان يسخر من خصومه، ويدعو رفيقه دون سيزار الذي شاركه في المعركة ، الى ان يكون لطيفا مع هؤلاء الخصوم ولا يقاتلهم قتال الموت •

وقد جرت هذه المعركة على مقربة من منزل سرفانتس الكاتب ، صديق بارداليان ، فخرج هذا على صوت الضجة ، فلما شاهد بارداليان يحارب خصومه الاربعة حمل سيفه ، وأراد مساعدته ، فقال له هذا :

ـ لا تكلف نفسك عناء محاربة هؤلاء السادة لانهم لن يلبثوا ان يتعبوا وينسحبوا •

وأطاع سرفانتس الامر ، ووقف يشاهد المعركة وهو شاهر سيفه •

وخرج صاحب النزل القريب وضيوفه يشاهدون على ضوء القمر منظرا لم يروا في حياتهم مثله •

راحوا يشاهدون رجلا واحدا يقارع بسيفه اربعة من الفرسان المهرة في حمل السلاح ، فيتخذ معهم خطة الدفاع ، ولا يجاريهم في طعناتهم وهجماتهم ، ثم يمضي في حديثه معهم ساخرا هازئا •• ويقول لهم فيما يقوله :

ـ تعلمون ان باستطاعتي ان انزع سلاحكم جميعا •• ولكني أحاول ان الوثكم بهذا العار •

واما (بيبي لكلرك) فقد تجاهله بارداليان ولم يعد ينظر له او يوجه اليه الكلام •

وضاق صدر الفرسان الثلاثة اخيرا •• وأدركوا ان بارداليان لا يريد قتلهم ، ولو آراد لأصبحوا في الغابرين •

وخفض مونتسيري سلاحه اخيرا وهو يقول :

ـ لست استطيع متابعة القتال على هذا النحو •

وفعل رفيقاه مثله بعد قليل •

وظلّ (بيسي لكلرك) شاهرا سيفه ، فأبعد عندئذ بارداليان صديقه دون سيزار ، وتقدم نحو حاكم الباستيل السابق .

واهتز (بيسي) لما شاهد وجه عدوه الرهيب ، وأدرك انه يريد نزع سيفه منه مرة اخرى .

وايقن انه لا توجد قوة في العالم تمنع بارداليان من تنفيذ ما يريده، فألقى سيفه ارضا وزمجر يقول والعبرات تخنقه :

ــ اني لا استطيع قبول هذا العذاب .. اقتلني وخلصني من هذا الذل .

ولم يتحرك بارداليان لقتله ، فأخذ (بيسي) ينتف شعره ويقول :

ــ ويلاه انه لا يريد قتلي .

ــ كلا .. اني لا اريد قتلك .. فقد عرفتك سجانا وعرفتك تريد قتلي في سبيل الحصول على مبلغ من المال ، وكان باستطاعتي ان اقتلك في الماضي ساعة اشاء ، ولكني عفوت عنك ، واما الآن بعد ان اصبحت قاتلا غادرا فان سيفي اشرف من ان يقتل مثلك .

وضاقت الدنيا في وجه (بيسي لكلرك) .. لما سمع هذا الكلام ، واخذ يضرب يديه على رأسه ثم استدار هاربا لا يلوي على شيء .

عندئذ التفت بارداليان الى الفرسان الثلاثة وقال لهم :

ــ لقــد عرضتم عليّ مساعدتكم هذا الصبــاح ، فرددت اليكم جميلكم هذا المساء ، ولم اقتلكم ، فحذار ان تعودوا لمثلها مرة ثانيــة ، فأقضي عليكم جميعا .

وحنى الثلاثة رؤوسهم وانصرفوا دون ان يقولوا كلمة واحدة .

وذهل النظارة لهذا المشهــد ، واخذوا ينظرون الى هذا الفــارس البطل نظرة اعجاب واكبار .

واما باردالیان فقد تأبط ذراع (دون سیزار) وقال له :
ـ هيا نتناول طعامنا يا صديقي فاني اكاد أموت من الجوع .

* * *

دخل باردالیان ورفيقه (دون سيزار) الى مطعم البرج الذهبي ، فقام اصحابه وضيوفه يخدمونهم ، بعد ان شهدوا المعركة ، وعرفوا اي بطل اكرمهم بالنزول عندهم .

وجلس الثلاثة، وكان سرفانتس قد انضم اليهم، يشربون ويتناولون الطعام ، ودون سيزار يشكر باردالیان على دفاعه عنه ، ويقول له :

ـ لولاك لكنت الآن في عداد الاموات فانك في الوقت الذي كنت تدافع فيه عن نفسك ، كنت تدافع فيه عني ايضا ، امام هؤلاء الفرسان الاربعة ، وهذه لعمري بطولة لم آرها في حياتي .

ولنترك الآن الاصدقاء الثلاثة يتحدثون ويتندرون ويأكلون ويشربون ، ونعود الى المتسول الذي طلب من باردالیان حسنة في اثناء الطريق ، ورفع خنجره يريد قتله لما اعطاه ظهره ، ثم لم يوفق ، فان هذا المتسول قد ذهب توا الى قصر (الاكازار) حيث اعطى الحارس كلمة المرور ، فسمح له بالدخول ، فتوجه توا الى غرفة ذي اللحية الشقراء الذي كان قد ربط ساعده بعد ان كاد باردالیان یکسره له فيأثناء اعتراضه له في القصر كما قدمنا فلما شاهده هذا هب يقول :

ـ كريستول .. لقد جئت اخيرا .

اخذ المتسول ينزع اطماره عن جسمه ، فظهر شخصا جديدا ، ولم يكن هذا الشخص غير الذي تعرض لدون سيزار ولجيرالدا ، فحمله باردالیان والقاه في الشارع .

وكان كريستوبال هذا احد طلاب العلم ، ولكنه كان شابا تجيش في صدره المطامع ، ولا يستطيع العيش في فقر مدقع ، كما كان حاله ، فانتظم في سلك الجندية ، وتعلم امتشاق السيف ، وقطع الطرق ، وبرع في الطعن بالخنجر ، ومهر في استعمال كل الاسلحة المعروفة ، وباع نفسه ومهارته هذه لمن كانوا في حاجة اليها من اصحاب المناصب ، ممن يريدون القضاء على عدو ، او خصم ، او مزاحم في الحب .

ومن الغريب انه رغما عن هذا السلوك القذر الذي سلكه لم ينقطع عن دروسه حتى اصبح بارعا يشار اليه بالبنان في علوم الفلسفة واللاهوت والتشريع ، وعرف بمهارته هذه اصحابه ومعارفه ، فكانوا يكلفونه بوضع الخطب لهم ، او في تنظيم حيثيات الحكم والدفاع للقضاة والمحامين .

وكان ان اتصل اخيرا بذي اللحية الشقراء بحجة انه من انسبائه ، وأدرك صاحب اللحية انه قد يستطيع الانتفاع بهذا الرجل ، فقر به اليه واعترف بنسبه له ، وأدخله بصفة ابن عم له في خدمة ديوان التفتيش براتب متواضع لم يكن يطمع بمثله في حياته .

وقد قص كريستوبال على ذي اللحية كيف ان المفتش الاعظم قد اطلق سراح بارداليان ، وكيف انه لم يوفق الى قتله ، فغضب هذا ، ولعن المفتش وصاح :

ــ اذا بقي هذا الرجل على قيد الحياة ، بقي العار مرسوما على وجهي ، وفقد الملك ثقته بي ، ولا يبقى امامي الا الانزواء في احد الاديرة حيث اموت بعيدا منسيا .

فقال له كريستوبال مهدئا روعه :

ــ ان عدوك فرنسي ، وهو لا يحلم ان يكون في منصبك ولن يفكر الملك الذي هو عدو عدوك ايضا في الاستغناء عنك لأجله .

ـ قد يكون ما تقوله حقا .. ولكن يجب قتل هذا الرجل واحراقه .. فأين هو الآن ؟

ـ لا بد انه في النزل الذي ينزل فيه .. يتناول طعامه .

ـ خذ ما تشاء من الرجال وحاصر النزل واقتله .

ـ فقال كريستوبال :

ـ عذرا يا ابن العم .. لقد كلفتني بالقبض على جيرالدا التي تيمك حبها ، ففعلت دون ان اكون حاملا امرا رسميا بالقبض عليها .. ولولا تدخل بارداليان اللعين لكانت لك الآن .

« وانا اخشى اذا تدخلت بأمر بارداليان ان يغضب المفتش الاعظم ، لانه لا يريد قتله كما يبدو .. في الوقت الحاضر على الاقل » .

ـ ما الذي تريده ؟

ـ اريد امرا كتابيا منك ، استند عليه .

ـ ولكني لا استطيع كتابة شيء .. فقد كسر اللعين ذراعي .

ـ خذ امرا من الملك .

ـ هل انت مجنون .. أأذهب الى الملك واقول له ، اسمح لي بقتل بارداليان الذي أذلني وأهانني .

فقال كريستوبال :

ـ صدقت .. ولكن هناك وسيلة اخرى وهي ان تأخذ امرا على بياض موقعا عليه بامضاء الملك ، وهذا موفور عندك .

وتردد ذو اللحية قليلا .. ثم عاد يفكر في بارداليان ، فتقدم الى درج واخرج منه ورقة بيضاء بامضاء الملك واعطاها لكريستوبال وهو يقول :

ـ حذار من اساءة استعمال هذه الورقة ، وعليك ان تعيدها اليّ بعد التنفيذ .

اخذ كريستوبال الورقة وهو يتظاهر بعدم المبالاة ، ولكنه فرح فرحا شديدا ، واخفى الورقة في صدره ، وودع ذي اللحية الشقراء ، بعد ان ذكر له انه قد يستطيع في الوقت نفسه الوصول الى (جيرالدا) ايضاً فيضرب عصفورين بحجر واحد .

★ ★ ★

بينما كان كريستوبال يجتاز ساحة القصر التقى احد رجاله ، فسأله عن بارداليان ، فقال له :

ــ لقد هاجمه اربعة فرسان فهزمهم .

ــ هل كان وحده ؟

ــ كلا .. فقد انضم اليه التوريرو ايضا .

ــ واين هو الآن ؟

ــ لقد جلس مع التوريرو وسرفانتس يأكلون ويشربون ، وما اظنهم ينتهون من طعامهم قبل ساعة .

فقال كريستوبال :

ــ حسنا .. اذهب الآن الى مركزك ، واذا حدث جديد فتعال اخبرني به في منزل السرو .

واختفى الرجل .. ومضى كريستوبال في طريقه حتى وصل شاطىء النهر ، حيث وقف امام منزل انيق يقع في الوادي الكبير .

تقدم نحو الباب فقرعه بطريقة سرية ، ففتح له ، فاجتاز الحديقة ، وارتقى درجات السلم ، ودخل في رواق فخم عظيم .. وقف فيه اربعة من الخدم للحراسة .

ويبدو ان صاحب المنزل كان في انتظاره ، فقد ادخله احد الخدم الى غرفة أنيقة الرياش ، لم يدهش لفخامتها ، كأنما قد زارها قبلا ، واكتفى بالوقوف في وسطها وهو يفكر .

وبعد لحظات ظهرت فوستا .

وحنى كريستوبال رأسه فقالت له :

ـ قل ما تريد فاني مصغية اليك .

ـ لقد حصلت يا سيدتي على امر موقع من الملك على بياض .

ـ اين هو ؟

اعطاها الامر ، فتأملته ثم وضعتــه في صدرها ومشت الى طاولــة كتبت عليها امرا ، بثلاثين الف قطعة ذهبية تصرف لحامله .

فلما شاهد الرجل الرقم كاد يجن والتفت الى فوستا يقول :

ـ لقد اعطتني سيدتي اكثر مما وعدتني قبلا .

ـ لقد فعلت .. لانك تنفذ الاوامر بسرعة ودقة .

ـ اذن اريد ان تعلم سيدتي ان بارداليان اصبح في قبضة يدي .

فاهتاجت فوستا لما سمعت هذا الكلام ، وتقدمت اليه وهي تقول :

ـ تكلم .. كيف كان ذلك .

ـ ان بارداليان يتناول طعامه الآن في نزل امرت رجالي بحراسته ، وعند خروجي من هذا المكان سأصحب معي عشرة من الشجعان لنقبض عليه .

وابتسمت فوستا .. ولم تكن تتصور ان رجلا بمثل هذه القذارة يستطيع الوصول الى بارداليان وقالت له :

ـ هل تحسب انك بهذه الطريقة سوف تقبض على بارداليــان .. يبدو ايها المسكين انك لا تعرفه ، ولا بد انك سوف تتعرض انت ورجالك لشر عظيم .

فقال كريستوبال :

ـ اذا كان الامر كذلك فسآخذ معــي عشرين او ثلاثين رجلا اذا اقتضى الامر .

قالت :

ــ انت لا تعرف مقدرة بارداليان وقوته •

وأراد الرجل ان يقول شيئا ولكنها قاطعتـه ومضت الى الطاولـة فكتبت تحويلا ثانيا على امين صندوقهـا بعشرين الف قطعة ذهبية وهي تقول :

ــ ان هذا المبلغ سيكون لك متى أردت •

ــ ما الذي يجب عليّ عمله لاحصل على هذه المكافاة ••

وألقت اليه بخطتها همسا ، ثم رفعت صوتها تقول :

ــ اذا نجحت •• قبضت المبلغ •

ــ اني على يقين من النجاح •

ــ اذن اسرع بالعمل واذهب •

وحنى الرجل رأسه وهو يقول :

ــ ارجو سيدتي ان تعدني بأن لا تكون النورية الحسنـاء لذي اللحية الشقراء •

سألته : هل تحبها •

وركع الرجل على الارض حتى لامس رأسه قدميها فادركت غرضه، ووعدتـه بأن لا تسلم النوريـة الى صاحب اللحيـة ، فجن جنونه من الفرح ، وغادر الغرفة لا يلوي على شيء •

وكانت فوستا قد تمكنت من اختطاف جيرالـدا بعد ان نوّمتها في غرفة قصرها •

وكان بارداليان في هذه اللحظة جالسا مع صديقيه يسمع حديثهما ، وكيف انهما انتظراه على باب القصر ، حتى خرج ، بعد أن كادا يقطعـان الامل من خروجه ، واخذا يفكران بالدخول الى القصر للبحث عنه بأية وسيلة كانت •

فشكرهما بارداليـان على اخلاصهما واخذ يحدثهما عن الاهوال التي شاهدها في القصر ، وكيف دفنوه حيا في تابوت ، ثم خرج منه •

ثم سأل (الدون سيزار) عن خطيبته جيرالدا فأخبره انها اختفت منذ مساء امس •• وقال له :

ـ لا اكتمك ان جيرالدا تبحث عن والديها ، فهي مثلي لا تعـرف ابويها ، والذي اعتقـده انها غادرت اشبيليـة للبحث عنهما ، ولهذا لم اقلق لاختطافها •• لانها اختفت قبل هذه المرة ثم عادت اليّ •

فقال له بارداليان :

ـ اذا لم تظهر في يوم غد فعلينا بالبحث عنها •

وبدّل لهجته حتى لا يثير مخاوف الشاب العاشق ، وسأله :

ـ هل تريد الاشتراك في مصارعة الثيران ؟

ـ نعم يا سيدي •

ـ الا تستطيع الامتناع عن حضور هذه الحفلة •

ـ لقد شرّفني الملك بدعوته لأشارك فيهـا ، وقد ارسل اكثر من مرة يذكرني بها ، وانه يريد مشاهدتي في اثناء الصراع فلا استطيع والحالة هذه مخالفة اوامره ؟

ـ هل جرت عادة الملك ان يدعوك •

ـ لا •• ولهذا اعتبرت طلبه هذا شرفا عظيما •

فقال بارداليان :

ـ لقد لاحظت انك تكره الملك ، فهل تقسم لي بأنك لا تضمـر عداء له ؟

ـ كلا •• هذا ما لا استطيع عمله يا سيدي •• فانا بالتأكيد اكره الملك وستكون ميتته على يدي •

سأله بارداليان فجأة :

ـ وكيف عرفت بموت والديك ؟

ـ لقد عرفت بالامر من الرجل الذي تولاني برعايته ، اذ ليس له غاية في الكذب عليّ ، وكثيرا ما كان يقول لي :

« خير لك ان تبقى مجهولا ، وان لا يشك احد من الناس بوجودك في قيد الحياة ، لانك تموت لا محالة اذا عرفوا بأمرك » .

ولهذا أدركت ان والديّ قد قتلا قتلاً ، وان القـاتل هو فيليب الثاني ملك اسبانيا ، ولهذا قررت ان لا يموت هذا الرجل الا من يدي .

— ٧ —

الهواء المسموم

حاول باردالیان ان یحذر (التوریرو) من قتل الملك ، لانه قد یكون غیر مسئول عن مقتل والدیـه ، ولكن الشاب أصرّ على اعتقاده ومضى یقول :

ـ لقد قبض على والـدي بأمر من الملك فیلیب الثاني ، فسجن في احد السجون ، وتعرض للتعذیب ، ثم قتـل من غیر محاكمة ، وخطفت والدتي وسجنت في احد الادیـرة ، وماتت مسمومة بعد خطفهـا بعدة اشهـر •

« وكان والديّ حين قتلا صغيرين مثلي ، وكنت انا طفلا رضيعا ، ولم ينقذني من الموت الا اخلاص احد الخدم الذي انقذني وخطفني سرا ، واخفـاني في مكان لا تصل اليه عين •• وقد خلف والدي ثروة كبيرة ، ولكن الملك حجز عليها ، واستلبها لنفسه » •

ومسح التوريرو العـرق البارد الذي كان يتصبب على وجهه ، ثم قال :

ــ ما الذي فعله ابي ، انه لم يرتكب جرما كما اعلم .. كل جرمه انه احبّ فتاة حسناء هي والدتي ، عشقها الملك ايضا ، فأراد اغتصابهـا منه .. فلما لم يستطع ، قتلهما .

وسكت الشاب ، وقال بارداليان لنفسه :

ــ عجبا من هذا الخادم الامين الذي انقذ هذا الشاب ، كيف كتم عنه اسم ابيه ، ولم يخبره ان جده هو الملك فيليب الثاني .

وأراد بارداليان ان يقول شيئا .. ولكن حدث في هذه اللحظة ان اقبل قزم عليهم ، فلما شاهده التوريرو ، سأله عن خبره . فأجابه :

ــ لقد جئت اخبرك ان (جيرالدا) قد اختطفت .. واهتز الثلاثة حين سمعوا هذا الخبر ، ووقفوا ، وسأله التوريرو بلهفة :

ــ وكيف خطفت ؟

ــ منذ ساعتين ، وقد كنت حاضرا ، ذلك اني تأخرت في عودتـي الى المنزل ، فأسرعت قبل اقفال ابواب المدينة ، فرأيت شبحا يسير مسرعا قدامي ، وكان هذا الشبح جيرالدا .

ــ وهل انت واثق انها هي ؟

ــ طبعا فأنا حديد البصر ، ثم اي فتـاة تستنجد بالتوريرو اذا لم تكن هي .. عندما تتعرض لخطر من الاخطار ؟

« وقد استنجدت بك حين هاجمها رجال لا اعرفهم ، فصاحت ونادت باسمك ، فوضعوا على فمها كمامة ، فانقطع صوتها .. وحملوها » .

ــ هل عرفت احدا من الرجال الذين خطفوها ؟

ــ نعم ، عرفت منهم كريستوبال ، المسمى بالدون سانتوريون .

سأل بارداليان صديقه : من يكون هذا الرجل ؟

فقال :

ــ انه الرجل الذي حاول التعرض لجيرالدا ، فألقيته الى الشارع.

ــ هل يعمل لنفسه ؟

ــ المعروف عنه انه يعمل لحساب ذي اللحية الشقراء .

وسأل التوريرو القزم :

ــ هل عرفت الى اين ذهبوا بها ؟

ــ نعم ولولا ذلك ما جئت اليك .

ــ اذاً خذني اليها .

ولكن باردليان تدخل ونصحه ان يترك الامر له ، حتى لا يتعرضوا لاخطار لم يحسبوا لها حسابا .

وسأل باردليان القزم :

ــ وكيف عرفت ان التوريرو موجود هنا ؟

وبدت على وجه القزم امارات التردد السريع ، ولحظ باردليان ذلك ، ثم ما لبث ان قال :

ــ لقد سألت عنه حيث يقيم ، فأخبروني انه موجود هنا ، واذا كنت تحبه ، فما عليك الا ان ترافقه ، وتأخذ معك من اصدقائك من تريد، لان كريستوبال لن يترك الفتاة الا بالقوة .. ولتعلم ان الذين اختطفوها لا يزيدون عن اربعة رجال ، ولكن قد يوجد في المنزل غيرهم .

فقال باردليان :

ــ اذا كان الامر كذلك فهيا بنا ، الى المنزل الذي توجد فيه الفتاة .

★ ★ ★

سأل بارداليان التوريرو في الطريق فيما اذا كان واثقا من اخلاص القزم •

فقال له :

ـ لقد دافعت عنه مرة ضد عصابة من الاشقياء كانت تريد الاساءة اليه ، فأخذ يبادلنـي منذ ذلك الحين عاطفة بعاطفة ، واظن انه مخلص ، ولكني لست واثقا من شيء •

وقال الفارس :

ـ سوف نرى •

ولما وصل الجميع الى منزل السرو ، قال القزم :

ـ هذا هو المكان الذي توجد فيه جيرالدا •

ونصحهـم بتجنب الماشي ، والسير على الحشيش حتى لا يسمعهم احد ، وقال :

ـ انه سينتظرهم في الحديقة ، واذا لحظ شيئا صفّر لهم •

وتقدم الثلاثة نحو المنزل معا ، فأبصروا ابوابه ونوافذه مقفلة وليس فيه نور ، فدار بارداليان حوله حتى شاهد نورا خفيفـا ينبعث من خلال نافذة من الشرفة الواقعة على زاوية المنزل •

كان بارداليان يتقـدم الجميـع ، والتوريرو خلفه وسرفانتس في المؤخرة ، وفي هذه اللحظة ظهرت اشباح في الحديقـة اخذت تزحف على بطونها ، حتى اذا وصلت لسرفانتس امسكوا به من عنقـه ومنعوه من الحركة والنجدة •• كما وضعوا على رأسه قبعة كادت تخنقه •

ولم يفطن بارداليان والتوريرو الى شيء مما حدث لصديقهما ، ولما وصل الخاطفون بسرفانتس الى مكان بعيد في الحديقة ، نزعوا عنه ثيابه ولبسها احدهم ، واخذ يقلد حركاته ، ثم لحق ببارداليان والتوريرو •

وصاح صوت بلهجة الامر يقول :

ــ ليحمل من هذا المكان ، وحذار ان يمسه احدكم بسوء •

وصل بارداليان اخيرا الى نافـذة ينبعث منها النـور ، فعثر على شجرتين كبيرتين مغروستين في صندوقين كبيرين تحتها ، فتولاه الشك في وجودهما تحت هذه النافذة المضاءة بالذات •

وكان التوريرو في هذه اللحظة قد تسلق احد الصندوقين ونظر عبر النافذة ثم صاح :

ــ انها هنا •

فأسرع بارداليان ينظر بدوره فشاهد الفتـاة ممددة جامـدة فوق سرير لا تتحرك •

واقبل في هذه اللحظة على الغرفة شخص نظر الى الفتاة نظرات تدل على حبه وغرامه ، ثم حملها فوق ظهره ، فزمجر التوريرو وضرب النافذة بكفيه وقال :

ــ لنسرع بالعمل قبل ان يخطفها •

فشهر عندئذ بارداليان سيفه ، وقفز الى النافذة ، وفي هذه اللحظـة سمع صوت صديقه التوريرو ، الذي لما حاول اللحاق به ، امسكته يدان قويتان من قدميه وجرته ارضا •

وقبل ان يستطيع بارداليان شيئا أحس بأرض الغرفـة تسقط من تحت قدميه الى مكان لا نور فيه •

ودمدم يقول :

ــ لم اكن انتظر هذه النتيجـة •• لقد كنت من الطيش بحيث لم افطن الى ان هناك مكيدة تدبر ضدي •• لقد اضعت سيفي كما يبدو ، ولكن خنجري لا يزال معي •

ومد يده يتحسس خنجره فلم يجده ، فصاح صاخبا :

ـ ويل للاشقياء لقد سرقوا خنجري ايضا .

وراح يفحص المكان الذي هو فيه :

وجده عبارة عن غرفة صغيرة ، ليس فيه كرسي ولا سرير . فأخذ يتحسس البلاط فلمس ورقة ، فرفعها وقال لنفسه :

ـ لا بد انها سقطت من صاحبها .. ولكن النور معدوم هنا ولن استطيع قراءة ما فيها .

وضع الورقة في جيبه واخذ يفكر .

واشتم رائحة في الغرفة .

وفكر ان (فوستا) لا بد قد زارت هذه الغرفة فتركت فيها هذه الرائحة .

وقال لنفسه :

ـ لقد حاولت فوستا قتلي بمختلف الوسائل ولكنها لم توفق حتى الآن .

★ ★ ★

فتحت نافذة في السقف في هذه اللحظة .. تكفي لمرور يد فيها .

وظهر من خلالها نور قوي .

وسمع صوتا عرفه في الحال يقول :

ـ ستموت يا بارداليان في هذا المكان .

فقال :

ـ لا اعجب اذا كان الموت سيصيبني بعد ما ارادت فوستا اللطيفة التنازل لمحادثتي .

وقالت فوستا وهو لا يرى وجهها :

ـ لقد حاولت قتلـك بمختلف الطـرق ، ولكنك نجـوت ، وقد خصصت الآن الهـواء لقتلك ، فالهـواء الذي تستنشقه الآن مسموم ، وستموت بعد ساعتين .

ـ لقد عرفت الآن سبب هذه الرائحة الغريبـة .. ولكن ما سبب ملاحقتك لي الى هذا الحد ؟

ـ السبب اني احبك .

ـ ان المحبين لا يقتالون من يحبون .. ولكني سأنجو من الهواء كما نجوت من كل شر سابق .

فقالت :

ـ اذا نجوت من الهـواء المسموم فستموت جوعـا .. كما انك موجود في غرفة قد سدت من جميع اطرافها فلن تظفر بالخروج منها ابداء

فقال :

ـ اني سأنجو يا فوستا .. لان بيننا حسابا قديما يجب تسويته.. فانت لعمري وحش كاسر ، يجب القضـاء عليه وسحقه ، وسأفعل ذلك فاحذري .

واحس بارداليان في هذه اللحظة بأن النعـاس قد دهمه ، فأغمض عينيه ونام .

ولبثت فوستا برهة في مكانها ، ولما لم تسمع صوتا غادرت الغرفة، بعد ان وثقت من الاحتياطات التي اتخذتها ، دون ان تقفل الباب خلفها .

اخذت تفكر لما عادت الى غرفتها وقالت :

— ترى هل اعطاني (بانيه) الذي يعمل عند اسبينوزا المفتش الاعظم مخدرا بدل السم ؟

لقد وقف باردليان في طريقها اكثر من مرة ، وأحبط كل احلامها وآمالها واعمالها .. فيجب ان يموت .

ودعت كريستوبال اليها ، وشكرته على نجاحه في المهمات التي كلفته بها ، ووعدته ان ترفعه من البيئة التي هو فيها الى بيئة اشرف واعظم ، وانه ليس غيرها يستطيع ذلك .. خصوصا وهو كثير المطامع وستعمل لتحقيق مطامعه .

فخرّ كريستوبال الى الارض شاكرا حامدا ، وقال :

— لئن فعلت يا سيدتي .. كنت عبدك الى الابد ..

فقالت :

— سأفعل .. وسأعطيك اوراقا تثبت انك من اصل نبيل .. واما من حيث الثروة فان ما اعطيتك اياه حتى الآن لا يعد شيئا مذكورا لما سوف اعطيك اياه في المستقبل على شرط واحد ، هو ان تكون عبدا لي.

ولكي يثبت كريستوبال عبوديته لها ، ركع على الارض وقبّل حذاءها .

أمرته برفع رأسه ففعل .

وقد أسكرته الاماني التي وعدته بها .

ومضت فوستا تقول :

— نعم اني اريدك عبدا لي .. واذا حاولت خيانتي سحقتك ، لاني اعرف كل ماضيك .

واقسم كريستوبال بأنه سيكون الطوع لها من بنانها . فأعطته العشرين الف قطعة ذهبية التي وعدته بها ، حين يقبض على باردليان كما زادته عشرة آلاف ليوزعها على الذين ساعدوه في مهمته .. وطلبت منه

ان يأتيها بالقزم الذي خان التوريرو ، وأتى به مع صديقيه الى القصر فلما أقبل سألته عن السبب في خيانته للتوريرو ، مع خدمة هذا له ، فقال لها :

ــ لقد كنت اعلم ان المقصود هو الرجل الفرنسي دون سواه .. ولو كنت اعلم ان صديقي التوريرو سيتعرض لأذى لما فعلت .

سرت فوستا لصراحته ، واعطته خمسة آلاف قطعة فجن جنونه لعظم الهبة ، وهطلت دموعه وقال :

ــ لقد اصبحت غنيا كالملوك .

فقالت فوستا بهدوء :

ــ نعم لقد اصبحت غنيـا بحيث اصبح باستطاعتك ان تتزوج من تهواها .

ارتجف القزم لما سمعه ، فاحمر واصفر وتغيرت ألوانه ، وحـدق بفوستا وقد بدت امارات الذعر على وجهه .

ومضت فوستا تقول :

ــ نعم انت قزم .. ولكنك لست مشوه الخلقة ، وباستطاعتك ان تتزوج من تهواها .. اذهب الآن .. واذا احتجت الى مساعدة فاقصدني اساعدك .

وخرج القـزم وقد انبهر من هول ما سمع ، بعد ان هجم على يد فوستا وقبّلها .

وبعد ان صرفت فوستا كريستوبال ، ذهبت الى غرفة (جيرالدا) فوجدتها لا تزال نائمة من تأثير المخدر .. فقالت لنفسها :

ــ لا بد ان تستفيق بعد دقائق .

ثم عادت الى الغرفـة التي اجتمعت فيها الى كريستوبال ،فجلست على كرسي واخذت تفكر ، واذا بهذا قد اقبل يقول لها :

ـ لقد نفذت امرك يا سيدتي ومن الحكمة ان نغادر هذا المنزل بأسرع ما يكون لانهم قد يأتون لتفقده .

ففكرت قليلا ثم قالت :

ـ ادفع هذا الباب ولكن لا تقفله .

وبعد ان ردّ الباب كما أمرته ان يفعل ، أبصر فتحة ضيقة في الحائط كان يحجبها الباب الكبير فهمس يقول :

ـ هذا باب سري بالتأكيد .

قالت :

ـ تناول هذا المشعل ، واتر لي طريقي .. ففعل ونزلا في سلم ضيق ، ثم في رواق ، واخيرا تقدمت فوستا من الحائط فنزعت منه قطعة من الحجر كانت في الواقع عبارة من قطعة من الخشب مطلية بلون الحجر ، فظهرت فتحة ادخلت فوستا يدها فيها وحركت محررا سريا ، فانفتح باب امامها ، وظهرت لهما مغارة اصطناعية كانت أرضها وأروقتها مفروشة بالرمل الناعم ، وقد علقت في السقف مصابيح عديدة ، وكانت هناك ثلاثة كراسي موضوعة امام طاولة كبيرة وعلى جانبها مقاعد خشبية تسع خمسين شخصا .

كانت هذه المغارة تشبه صالة لاجتماع سري.. فهل كان كريستوبال عارفا بهذه الاسرار ؟

يبدو انه كان عارفا ، لانه اخذ يرتجف ويضطرب .. وبدا الرعب على وجهه فأمرته فوستا بانارة المصابيح ففعل .

ولما فعل غادرت المغارة ، وعادت الى الفتحة التي تركتها مفتوحة خلفها ، وقالت له :

ـ أنظر .

فحنى رأسه فأبصر كل خفايا المغارة من هذه الفتحة ، ورأى ما أذهله وأدهشه ، حتى كاد يجن من الرعب .

وتجاهلت فوستا اضطرابه .. وعادت الى المغارة وهو خلفها ، وقد عقد الخوف لسانه ، فلم يلاحظ ان فوستا قد حركت زرا خفيا اقفل خلفها الباب الذي دخلا منه .

وقالت فوستا :

ـ من هذه الفتحة يستطيع المرء ان يرى كل شيء ، ويسمع كل ما يقال .. وقد سمعت كل ما قيل في الاجتماعين الاخيرين .. فهل تراني في حاجة لأقول لك اني مطلعة على كل شيء ؟

جثا كريستوبال على ركبتيه وهو يقول :

ـ رحماك يا مولاتي .

دفعته بطرف قدمها وقالت :

ـ قف في مكانك .. هل حسبت اني ادخلتك في خدمتي لأسلمك الى ديوان التفتيش ؟

فانتصب واقفا وقد طار قلبه فرحا وهو يقول :

ـ اذاً فأنت لا تريدين تسليمي الى الديوان ؟ انت تعلمين يا سيدتي اني تابع للديوان ، واعلم مبلغ العذاب المعد لمن يخونونه وانا افضل الانتحار الف مرة على السقوط في ايديهم .

فقالت :

ـ اني اعفو عنك هذه المرة .. ولكن مصالح فوستا يجب ان تقدم على غيرها من المصالح ، وعليك بعد الآن ان تقدم لي تقريرا بكل شيء .. وان لا تخفي عني شيئا .. لقد جعلتك في خدمتي لتخون من كنت تخدمهم دون ان تفيد منهم .

ـ حسنا يا سيدتي فاني تحت امرك .

سألته :

ــ متى يكون الاجتماع ؟

ــ بعد ساعتين .

فقالت فوستا :

ــ ان الرجال الذين يجتمعون هنا يعلمون بوجود ولد للدوق كارلوس ، وهم يريدون ان يجعلوه رئيسا لهم ، ورغم المساعي التي بذلوها لم يعثروا له على اثر ، وانا اعلم انك تعرف هذا الامير البائس فما اسمه ؟

ــ الدون سيزار وهو المعروف بلقب التوريرو .

واستبد بفوستا الغضب وصاحت تقول :

ــ هل عاشق جيرالدا ؟

ــ نعم يا سيدتي .

ــ الويل لك ايها الاثيم .. أبعد ان تركته يحب النورية تخبرني بخبره .

ودهش كريستوبال لما شاهد غضبها ، وحنى رأسه يقول :

ــ رحماك يا سيدتي ، فلم اكن عارفا .. كما انك لم تسأليني .

وتمالكت فوستا عواطفها وقالت :

ــ هذا صحيح .. فأنت لم تكن تعرف نواياي ، فحدثني الآن بما تعرفه ؟.

انتهى